

ت من
و ۵

التصوف في الإسلام

منابعه وأطواره

777



٤٠

بقلم

محمد الصادق عرجون ✓

عميد كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر

مكتبة

ناشر

مهر

١٩٦٧

تصوف ١٣٠

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
لغناحيها
حسين محمد إسماعيل الشياوي
شارع الصارفة سيدي الأزهري

التصوف في الإسلام منابعه وأطواره

بقلم

محمد الصادق عرجون

عميد كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر

١٩٦٧

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

لصاحبتها

حسين محمد إسماعيل المنياوي

شارع الصارفة سيدي الأثر

53515

دارالهدى قاول العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبدالرازق

١٩ كنيسة الأرمين من الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

فاتحة و تمهید :

الحمد لله الذي أيقظ قلوب خواص أوليائه بإشراق شمس شهوده ، حتى سطعت في آفاقها أنوار معرفته ، فهاموا وجدوا في منازل عبوديته ، وهبت على أرواحهم من فراديس رضوانه نسائم قدسه ، وأشهدهم عوارف فضله في شهود إنعامه ، فلم تشغلهم النعم عن الإنعام ، ولم يحجبهم الإنعام عن سبجات أنوار المنعم ، وزج بهم في عوالم الملكوت فلم يلتفتوا ، بل سبحوا في بحار التجليات ، وهناك شربوا من كووس القرب فأونسوا فاستأنسوا ، وذهبت عنهم وحشة الغربة بندااء المحبة ، فوقفوا في صحوة أدب ذل العبودية ينادون مناجين « سبحانك لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » فالعجز أوصلهم ، والوصول أدبهم ، وذل التعبد كلمهم ، أحبهم ، وبجبه أحبوه ، وقربهم ، وبتقريبه شاهدوه . شهود تفرده بالوجود ، وبه كانوا في بقاء الفناء عن أنفسهم عبيد إحسانه ، فأحل عليهم رضوانه الذي به يحيون مع هذه الحياة ، وفي بجموحة جناته يعيشون ، أحياء عند ربهم يرزقون ، دنياهم برزخ الخلودهم ، عملوا فعملوا . ونودوا فهبوا وطلبوا فشدوا ، غرباء بين الناس ، يرضيهم الحنين إلى وطنهم الأول ، ويسوقهم الشوق على نجائب الرجاء في مفاوز الخشية ، لا يترحون إلا إذا أنزلوا منازلهم (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

والصلاة والسلام على عين حقيقة الوجود الأكل في بشرية الشهود ،
حامل لواء الحمد يوم لا يوم بعده ، الشرف فيه هو الشرف الأشرف ،
والتكريم فيه هو الإكرام الأكرم ، آدم فمن بعده من سائر النبيين
والمرسلين ، الخليل والسكيم والروح مستظلون بظل شفاعته تحت لوائه .

المبعوث خاتماً والمرسل رحمة ، الذي أقام الله به معالم الهداية إلى وحدانية
الوجود الأقدس ، وأمهده بسر قيوميته فأنكشفت له حقائق التجليات
الصمدانية انكشافاً انفراد به في مقام (مازاغ البصر وماطغى) وكانت له
بذلك منزلة (الحبيب) فرأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، وشهد ما شهد ، وعلم
ما علم وتحقق بأقرب مشاهد القرب ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، وأوحى
إليه ما أوحى ، وتطابق مشهد الفؤاد بمراى البصر ، حيث لا كيف ،
ولا أين ، وتمت له وعليه نعمة ربه الكبرى ، وسجد تحت عرش الجلال
في مقام (لعلك ترضى) فكان المطلوب الأعز ، والحبيب الأحب ، ونادى
منادى (سبحان الذي أمرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى) ووفدت عليه وفود النهانى من آفاق التعزز بذل العبودية هاتفة
(واسجد واقرب) .

فصلوات الله وسلامه وبركاته ورحماته وتحنناته على سيد المرسلين وإمام
العابدين المخلصين المخلصين ، خاتم النبيين سيد الوجود محمد الأحمد المحمود ،
وعلى آله وأصحابه وأنصاره ، وأزواجه ، وذريته الذين سكب في أرواحهم
من شراب شهوده قطرات من غيث فيض الجود ، فتجلت لهم رياض الوجود
في حقائق الشهود ، وسرت إليهم منه أشعة العرفان ، فعرفوا ، وتنزلت
عليهم من سماء رسالته علوم الهداية ورسوم الولاية ، فعلموا من جلال
الله وعظمة كبرياته ما أفاء بهم إلى أدب ، كان خصيصة لهم في شهودهم وأداء
عنهم سيدهم الصديق الأكبر فقال (العجز عن درك الإدراك إدراك) .

أوائك هم شمس الهداية الربانية ، وعقول العلوم الإلهية ، وتربية
الأنوار المحمدية ، وخلاصة الجرثومة الإنسانية ، وورثة النبوة الإسلامية
ودوحة الإشراق الروحانية ، لا ينقطع مددهم عن العلماء ، ولا تحجب أنوارهم
عن آفاق الأولياء ، من تأدب بأدابهم لحق بقافلتهم ، ومن تزيد أو تنقص
تخطفته الذئاب إلى بنيات الطريق فهوى به الريح في مكان سحيق .

فرضى الله عنهم وعصمنا بعواصم متابعتهم عن الانزلاق في مزلق
الهوى والغرور ، ووقفنا إلى الأخذ بهدائيتهم ، حتى لا نضل الطريق ، وحتى
نصل إلى منازل ذل العبودية على أقدام العجز والافتقار في مقام (اللهم
أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين) .

ونسأل من خصهم بمطالعة نور أنوار الإنسانية أن يلحقنا بمن لحق
بهم من المؤمنين تفضلاً وإحساناً إنه أرحم الراحمين .

وبعد فهذه جمل وكلمات موجزة في الحديث عن «التصوف في الإسلام»
وفي بيان منابعه الأصيلة من أصول الإسلام ، التي تنبع منها عيونهم ، وتفيض
من نبيها أنهاره ، وفي بيان أطواره التي تحدرت في منازلها مراحل تاريخه .

والتصوف الذي نقصد إلى الحديث هنا عنه هو «التصوف في الإسلام»
ولهذا جعلناه عنواناً للبحث حتى لا يتشعب بنا الحديث إلى شعاب
يضل فيها الخريت الفطن من الأدلاء ، ويقيه في أوديتها الماهر الحاذق
من الخبراء .

وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً اختلافاً بعيد المدى ، واسع المدى
في معنى «التصوف» ، وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين أنه درس
خمسة وستين تعريفاً «للتصوف» ، فلم يجد معنى عاماً منها مشتركاً بينها اشتراكاً
يجمع خصائصها ويوحد حقيقةها .

والذي ينظر في كتب «التصوف»، ويطيل النظر يجد أنه أمام مئات من التعريفات «للتصوف»، وكل تعريف منها ينحو إلى نحو خاص، وشاهد ذلك نجده قريباً بين أيدينا في كتاب «الحلية»، لأبي نعيم، وهو كتاب مشهور من أجمع ما كتب في «التصوف»، رجالاً ونحوها وأقوالاً وحكايات وتعريفات، وحسب القارىء أن يعلم أن هذا الإمام ترجم لأكثر من ثمانمئة شخصية صوفية من رجال ونساء ترجمة تختلف اختلافاً بيناً في الإيجاز والإسهاب، وهو يذكر في كل ترجمة معنى أو أكثر من معنى للتصوف يختلف عما يذكره قبلاً أو بعداً.

والذي نراه في تأويل هذا أن التصوف أحوال وأذواق ومقامات تتفاوت فيما بينها تفاوت أحوال ومقامات ومشارب أصحابها، ويمكن أن يقال: إن كل سالك في الطريق إلى الله تعالى له حال أو أحوال، وله ذوق ومشرب، بل أذواق ومشارب تتجدد معه بتجدد سيره وهمته في السير، وما يكشف له من معالم الطريق في سيره، فإذا أراد أن يعبر عن مشاهدته وحاله عبر بما يمليه عليه حاله في وقته، فإذا جاوزته تغيرت المشاهد والمعالم، ولا بد أن يتغير التعبير، ومن هنا يمكن فهم ما يرى في علوم القوم وكلماتهم من اختلاف في التعبير.

وكما اختلف الناس في معنى التصوف، اختلفوا في تحقيق هل «التصوف» علم من علوم الإسلام الأصيلة النابعة من الحقيقة الإسلامية المنزلة في كتاب الله على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم والمائلة في سنته المطهرة علماء وعملاً باعتبارها وحيماً من الله تعالى موجبا للإيمان بهذا الوحي على مراتبه في درجات الطلب سلباً وإيجاباً.

أو هو علم من العلوم الطارئة في تاريخ الإسلام، نتيجة لتفاعل المزج بين عقائد الأمم التي استتظمت بظل الإسلام، وأخلاقها وأفكارها، وسلوكها؟

أو هو طريق من طرائق السلوك في الحياة ، اختطها طائفة من الناس ،
بعد أن نصبوا معالمها وأقاموا مناراتها من أصول الشريعة المطهرة ؟

يقول ابن خلدون : (وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ،
وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة
والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية .

وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض
عن زخارف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال
وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة) .

والمتأمل في عبارة ابن خلدون يخرج منها بأمور ، قد تساعد على تحديد
المقصود من «التصوف في الإسلام» ، تحديداً يقرب الفواصل بين «التصوف
العملي» و«التصوف النظري» .

الأمر الأول - أن عبارة ابن خلدون واضحة في أن «التصوف» ليس
علماً بالمعنى المعروف في اصطلاح أهل الفنون الذين يعتبرون «العلم» فناً
له قواعد ومبادئ تنتظم مسائل محددة ، تدرج كلها تحت حقيقة واحدة ،
هي تعريف «الفن» ، تعريفاً يجمع مسائله ، ويمنع من دخول غيرها معها
في تعريفه ، وهذا هو مراد الاصطلاحيين في قولهم أن التعريف يجب
أن يكون جامعاً مانعاً .

فتعبير ابن خلدون عن «التصوف» بأنه «علم» ، تجوز في العبارة
وتساهل في الأداء .

الأمر الثاني - أن صدر عبارة ابن خلدون صريح في أن «التصوف»
حادث في الملة الإسلامية ، والذي يفهم من هذه العبارة أن ابن خلدون
يتحدث عن «التصوف النظري» ، الذي أصبح منذ أواخر القرن الثاني لونا

من ألوان التفكير الإسلامي ، له نظرياته ، وله أهله القائمون على حقائقه ؛
وله كتبه واصطلاحاته ، وله غايته وأهدافه .

الأمر الثالث - أن ابن خلدون ذكر في صراحة أن أصل «التصوف»
وهو طريق القوم ، هو طريق الحق والهداية ، وهذا واضح في أنه يعنى
بذلك «التصوف العملي» الذي هو السلوك الخلقى ، والتطبيق الواقعي لروح
الشريعة وآدابها ، وإن هذا كان موجوداً ومعروفاً عن السلف من الصحابة
والتابعين ومن بعدهم ، وأنه كان عندهم هو طريق الحق والهداية .

الأمر الرابع - أن هذا «التصوف العملي» كان يتمثل في العكوف
على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن الدنيا وزخارفها وزينتها .

وهذا يؤيد أن «التصوف في الإسلام» بدأ سلوكاً وعملاً تطبيقياً لروح
الشريعة ونصوصها ، وتخلقاً بآدابها في الظاهر والباطن ، ولم تكن لهذا
«التصوف» نظريات خاصة ، ولا كانت له تسمية خاصة تفرده عن التكيف
بطاعة الله وإخلاص التعبد له عز شأنه ، وكان هذا السلوك عنواناً عاماً
لأعمال الصحابة والتابعين ومن بعدهم في القرنين الأولين ، إلى أن فشا في
الناس الإقبال على الدنيا ، وجنبوا إلى مخالطة أهلها اختص المقبولون على
العبادة بإسم الصوفية والمتصوفة .

ونحن ننظر في هذا البحث إلى «التصوف» على ضوء المعاني التي ذكرها
ابن خلدون في عبارته ، باعتبار هذه المعاني كانت من الحقائق الوجودية
في تاريخ الإسلام ، وجدت معه منذ وجد . بقطع النظر عن هذه التسمية
الطارئة ، وهذه المعاني هي الحقيقة التي كانت تضم مجموعة من العناصر
«العملية» وكانت هي الصورة السلوكية في التربية الإسلامية للأفراد
والجماعات ممثلة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه وتلاميذهم من

التابعين رضوان الله عليهم ، وهذه التربية هي مناط الخيريه المذكورة في الحديث الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وهي التي عبر عنها علماء القلوب بالأخلاق الإسلامية ، لأنها كانت عملا من أعمال الناس في حياتهم ، ولم يتحدث عنها كمنظريات علمية ، لأن أولئك القوم كان يشغلهم العمل أكثر مما يشغلهم القول .

والعناصر « العملية » التي تألفت منها هذه الحقيقة التي سميت فيما بعد « تصوفا » كثيرة بتفريعاتها ، ولكنها تتدرج تحت أصول عامة نبه عليها القرآن الكريم في آياته ، وتخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي المعنى المقصود في حديث عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت للسائل : كان خلقه القرآن .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفيشون إلى ظل من الأنوار النبوية ، يتمثلونها في حياتهم العملية ، ويطبقونها في وجودهم أينما كانوا وكيفما حلوا ، يرقبون أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدخله ومخرجه ، في بيته ومسجده ، في حربه وسلمه ، في يقظته ونومه ، في تعبداته وأعماله ، في عاداته وأخلاقه ، في حركاته وسكناته ، في مظهره ومخبره ، في زيه وهيبته في مشيه وقعوده ، في حديثه وسكوته . في غضبه لله ورضاه ، في حزنه وسروره ، في ضحكه وتبسمه ، في أكله وشربه ، في قوله وفعله ، في عدله وهدايته ، في جهاده وشجاعته ، في رأفته ورحمته ، في كل شأن من شئونه ليطبقوا حياته على حياتهم بقدر طاقتهم ، ولقد كان أحدهم يعمل العمل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمله ، فإذا سئل عن حكمة ذلك قال : لا أدري إلا أني رأيت رسول صلى الله عليه وسلم يصنع هذا فصنعته ، لأنهم كانوا يرون أنه صلى الله عليه وسلم لا يفعل إلا ما هو محض خير ،

روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما روى وهو يدير ناقته في مكان مر به ، فسئل في ذلك فقال لا أدري إلا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله ففعلته .

وقد جرى التابعون على سنة الصحابة ، وساروا في طريقهم ، يتبعون آثارهم ، ويقتفون خطوهم في حياتهم ، ويستمسكون بما يعلمون أنه كان من فعلهم وأخلاقهم ، لأنهم تلمذوا عليهم ، وعندهم أخذوا العلم والعمل ، فكانوا في أغلب حالهم صورة منهم ، حتى ذر قرن الفتن ، ودخل في الإسلام من لم يكن يرجو لله وقارا ، ولا للإسلام عزة وانتصاراً . وأصبح المجتمع الإسلامى خليطاً من البشر بين مؤمن صادق الإيمان كظمته الفتن وانطوى على مستكنة من الأحزان على مصير أهل الإيمان ، وهؤلاء كانوا القلة الأصيلة التي عاشت مع التابعين كما عاش التابعون مع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وبين مؤمن ضعيف الإيمان في العمل والتحلي بأخلاق الإسلام وشرائع الإيمان ختلته الدنيا بخدعها فانحاز إليها وبين مسلم يدفع عن نفسه بإسلامه ، والله أعلم بما يبطن في قلبه .

ومن ثم كان القرآن الكريم وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه ، وحياة تلاميذهم من التابعين هي منابع «التصوف في الإسلام» باعتباره حقيقة عملية وجودية في واقع حياة المسلمين في الصدر الأول ، بغض النظر عن عنوانه هذه الحقيقة وتسميتها بهذا الاسم المستحدث في القرن الثاني كما يقول ابن خلدون .

وسنورد هنا النصوص من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأحوال أصحابه في حياتهم ، وأحوال أئمة التابعين لبيان ما قصدنا إليه من أن «التصوف في الإسلام» باعتباره عملاً سلوكياً

وأخلاقياً ينبع من أصول الإسلام ، وليس كما يزعم المتقولون غريباً عنها ،
مستحدثاً في تاريخ الإسلام ، مستجلباً إليه من آفاق بعيدة عن الإسلام ،
وإنما المستحدث منه هو هذه التسمية ، وما تبعها من أمور نظرية دخلت
على حقيقة « التصوف » العملية ، فنقلتها إلى وضع نظري فلسفي لم يعرفه
السلف الصالح .

وسوف لا نتقيد في إيراد النصوص والحوادث بترتيب خاص ، وإنما
نهتم بتثبيت المعاني العملية السلوكية التي نطلق عليها اسم « التصوف العملي »
أو « الأخلاق الإسلامية » .

ويمكن أن نوجز الكلام ، ونحصر تفريعات « التصوف العملي »
الذي يعرفه الإسلام في أصوله ، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحياة
أصحابه وتلاميذهم من التابعين ومن بعدهم في دائرة تتألف حلقاتها من أمور
ثلاثة ، قد تكون هي مبادئ ونهايات التفريعات التي تجمع عناصر
« التصوف في الإسلام » .

الأول - الزهد في الدنيا .

الثاني - مراقبة الله تعالى .

الثالث - عدم الغفلة عن ذكر الله عز شأنه .

ونحن حينما نتحدث عن هذه الأمور الثلاثة لانقصد إلى التفاصيل
الجزئية التي تستوعب وتستقصي . لأن ذلك غير مستطاع في هذا البحث
وإنما نقصد .

أولاً - إلى توجيه الطلاب إلى أن السمو الروحي ، والإشراق القلبي ،
والتخلق بمعالي الأخلاق ، والتحلي بمكارمها ، استبطاننا للفضائل - وهو

ما يستهدفه «التصوف» المستقيم كان سمة سلفنا الصالح ، وعنوانهم الذين كانوا يعيشون به في الحياة .

فالتصوف بهذا المعنى العملي حقيقة من حقائق الإسلام الأصيلة ، أو هو على التحقيق روح الإسلام وحقيقته الكبرى .

ثانياً - إلى تنبيه الباحثين في «التصوف» إلى وجوب ربط بحوثهم بأصل هذا «الفن» في الإسلام ، وإلى تفجير منابعه الإسلامية الأصيلة حتى يظهر للعقول السليمة ما يتجنى به بعض من يكتب في هذا «الفن» من المسلمين وغيرهم ليجعلوا منه «فنأ» أجنبياً عن الإسلام . لاغفالهم هذا الربط ، وتجريد النظر إلى «التصوف النظري» المتفلسف ، حتى يباعدوا بين حياة المسلمين في يومهم وبين حياة أسلافهم الذين كانوا يحيون بقلوبهم وعقولهم وأرواحهم حياة قوية مشرقة ، فتحت لهم مغالبي الحقائق الكونية ، وأظهرتهم على أسرار الوجود فسادوا بالعدل والرحمة ، والعمل الدائب لخير الإنسانية وخير الحياة كلها .

الزهد في الدنيا :

أما الزهد في الدنيا فلم يكن المقصود به كراهية الدنيا وعدم الالتفات إليها ، وإنما كان المقصود به عدم حب الدنيا ، وفرق كبير بين المنزلتين ، فالكراهية تدعو إلى التبعاد والدفع والنفور والفرار ، وعدم الحب ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام وعدم الالتفات والترقب وعدم التطلع .

فإذا أقبلت الدنيا عليهم لم يقبلوا عليها بقلوبهم ، ولما كانوا يصرفونها بعقولهم وحسن تدبيرهم ، فإذا جاءها الحق يطلبها من أيديهم قالوا بها هكذا ، وهكذا ينفقونها راضية أنفسهم ، قريرة أعينهم ، وإذا

تطلعت إليها المكارم كانوا بها أجود من الريح المرسله ، لا يسكون ،
ولا يسرفون ، وإنما عدل وإحسان .

ذلك لأنهم رأوا القرآن الكريم يعرض لذكر الدنيا فيصفها بأنها هلو
ولعب وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية فيقول الله تعالى : (وما هذه الحياة
الدنيا إلا هلو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون) .

ويقول عز اسمه : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهلو وزينة وتفاخر
بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم
يبيح فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من
الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم
وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) في آيات من هذا
اللون وهذا التصوير كثيرة .

ورأوا القرآن يقول لسيد الوجود خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم
(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك
من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون
من الظالمين) .

ويقول له : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من
أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) .

ويقول له : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . لا تمدن
عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك
للمؤمنين) .

ويقول له (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

ورأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد حرصه على تبليغ رسالة ربه ، ويبذل في سبيل ذلك فوق طاقته لاستمالة قلوب الشاردين عن كنف الله ، ويتعرض لأشد ما يتصور أن يتعرض له بشر على ظهر الأرض من البلاء . رجاء أن يفوز بإيمان واحد منهم ، فيتلطف به ربه ، ويرحم بلاءه في مرضاته ، فيقول له عاذراً ومصلحاً (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) ويقول له (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) .

ولكن هذا التلطف يزيد من شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على القيام بأمر ربه ، فيجتمع إليه قوم من صناديد الكفر ، وغطارفة الوثنية المتغطرسة ، ويعرض عليهم دعوة ربه ، وفي حسبانهم أنهم لو آمنوا لآمن بإيمانهم الكثير من أتباعهم وأشباعهم .

ولكنهم يابون إلا أن يفرضوا لأنفسهم مزايا ترفعهم فوق مستوى الناس ، ويأبى الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا التعزز بأهل الإيمان ولو كانوا فقراء ، وينزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم درساً من الأدب القرآني الأكرم في قصة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه ، تعليماً لرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يتخفف من لطفة التطلع إلى إيمان أولئك الشاردين ، ويبقى على نفسه رحمة بها ، وحسبه في البلاغ قياماً بحق الدعوة إلى الإيمان بالله رب العالمين أن يقبل على الذين يسعون إليه ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، لأن الإيمان لا حاجة به إلى أهل الدنيا من الطغاة الجبابرة الذين لا يستطيعون الإيمان ، ولا يتذوقون الاخلاص غروراً بدنياهم التي شغفوا بها حباً ، وتعبدوا لرخارفها وزينتها .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاشه وشدة عيشه ، وقد يلبث الأيام لا يذوق طعاماً ، يروي أنس بن مالك رضى الله عنه أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت بكسرة خبز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : « ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ » قالت عليها السلام : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إنه أول طعام دخل فم أيك منذ ثلاثة أيام ، »

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشد صلبه بالحجر من الجوع وكانت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تبكي بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها ، ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فتقول : ما أشبع فأشاء أن أبكي إلا بكيت ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال : (والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام) قال راوى الحديث : وإنما لتسعة أبيات ، والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ، ولكن أراد أن تأسى به أمته .

والحديث عن « زهد » النبي صلى الله عليه وسلم لا تستوعبه الرسائل ، ولا يحسن امرؤ أن زهده صلى الله عليه وسلم كان عن غير غنى لو أراد ، وإنما كان زهده تقبلاً من الدنيا ، واعراضاً عن زهرتها ، وقد سيقت إليه بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها وغنائمها ، وقد توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى في نفقة عياله ، وكان يدعو ويقول « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

وفي حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رجلي ، وقال

لى صلى الله عليه وسلم : « إني عرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهباً ،
فقلت : لا يارب ، أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذى أجوع فيه
فاتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .

وفى حديث حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : كان فراش
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته مسحا نثنيه له نثيتين فىنام عليه ،
فثنيناه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : « ما فرشتموا لى الليلة ؟ » فذكرنا
ذلك له ، فقال : « ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى » .

وتقول عائشة رضى الله عنها : لم يمتلىء جوف النبى صلى الله عليه وسلم
شبعاً قط ، ولم يبت شكوى إلى أحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ،
وإن كان ليظل جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ،
ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد
كنت أبكى له رحمة مما أرى به ، وأمصح ييذى على بطنه مما به من الجوع ،
وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك ؟ فيقول :
يا عائشة « مالى وللدنيا ، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على
ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم ،
وأجزل ثوابهم فأجدنى استحيى إن ترفعت فى معيشتى أن يقصر بى غداً
دونهم ، وما من شىء هو أحب إلى من اللحوق بأخوانى وأخلاقى » .

قالت عائشة رضى الله عنها ، فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفى صلى الله
عليه وسلم .

وقد تأسى به صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم ، وجرؤا
على سننه ، روى زيد بن أرقم أن أبابكر رضى الله عنه استسقى ، فأتى
بأناء فيه ماء وعسل ، فلبس أدناه من فيه بكى ، وأبكى من حوله فسكت
وما سكتوا ، ثم عاد فبكى حتى ظنوا ألا يقدرؤا على مساءلته ، ثم مسح

وجهمه وأفاق ، فقالوا : ماها جك على هذا البكاء ؟ قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل يدفع عنه شيئاً ، ويقول : « إيليك عنى ، إيليك عنى ، ولم أر معه أحدا ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً ؟ قال : « هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها ، فقلت لها : إيليك عنى ، فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى من بعدك ، فخشيت أن تكون قد لحقتنى ، فذاك الذى أبكاني .

ولقد كانت الدنيا تكون فى أيديهم فلا تشغلهم عن الله تعالى ، فإذا نادى عليهم منادى البذل فى سبيل الله والإِنفاق فى وجوه الخير بذلوها فرحين مستبشرين .

روى زيد بن أرقم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك ما لا عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ، قال : فجئت بنصف ما لى ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك » ؟ قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك » ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسألك إلى شيء أبداً .

وفى حديث عبد الرحمن بن عوف قال : دخلت على أبى بكر رضى الله عنه فى مرضه الذى توفى فيه ، فسلمت عليه ، فقال : رأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهى جائية ، وستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمون النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حـد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا .

وقد نهج عمر رضي الله عنه في شدة التعلق
بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب الناسى به في جميع أحواله ،
ففي حديث حفصة أم المؤمنين أنه لما اتسع على الناس الرزق في عمده ،
وكثر المال قالت له : يا أمير المؤمنين !! لو لبست ثوباً هو أئين من ثوبك ،
وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك فقد وسع الله عز وجل من الرزق
وأكثر من الخير ؟ فقال لها : إني سأخاطبك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان
يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة العيش ؟ فما زال يذكرها حتى
أبكاه ، فقال لها : والله إن قلت ذلك ، أما والله لن استطعت لأشركنهما
- يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه - بمثل عيشهما
الشديد ، لعل أدرك معهما عيشهما الرخي .

وفي عمر يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : قد علمت بأى شيء
فضلنا عمر ، كان أزهدينا في الدنيا ، ويروى أن عمر رضي الله عنه لما قدم
الشام صنع له طعام من أطيب الأطعمة ، فقال : هذا لنا ، فما لفقراء المسلمين
الذين ما نوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟ قال خالد بن الوليد : لهم الجنة ،
فاغرو رقت عيننا عمر بالدموع ، وقال : لن كان حظنا في هذا الطعام
وذهبوا بالجنة لقد باينونا يونا بعيداً .

وقال الأحنف بن قيس : أخرجنا عمر في سرية إلى العراق وبلاد
فارس وخراسان ، فحملنا معنا واكتسينا ، فلما قدمنا على عمر أعرض عنا
بوجهه وجعل لا يكلمنا ، فاشتد ذلك علينا ، فشكونا ذلك إلى ولده عبد الله ،
فقال رأى عليكم لباساً لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخليفة
من بعده فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتينا في البزة التي يعهدنا منا ،
فقام فسلم علينا رجلاً رجلاً واعتنقنا رجلاً رجلاً حتى كأنه لم يرنا .

وكان عمر رضى الله عنه يخطب الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ،
ويقول على كرم الله وجهه : رأيت لعمر رضى الله عنه إزاراً فيه إحدى
وعشرون رقعة من جلد ، ورقعة من ثيابنا .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : والله ما شمل النبي صلى
الله عليه وسلم في بيته ولا خارج بيته ثلاثة أثواب ، ولا شمل أبابكر في بيته
ثلاثة أثواب ، غير أنى كنت أرى كساهم إذا أحرموا كان لكل واحد منهم
مئزر ومشمتمل لعلمها كلها بثمان درع أحكم ، والله لقد رأيت النبي صلى الله
عليه وسلم يرقع ثوبه ، ورأيت أبابكر يخلل بالعباء ، ورأيت عمر يرقع جبته
برقاع من آدم وهو أمير المؤمنين .

ويروى ابن الجوزى عن سنان الدؤلى قال : دخلت على عمر وعنده
نفر من المهاجرين ، فأرسل عمر إلى سفيط أتى به من قلعة من العراق ،
وكان فيه خاتم فأخذه بعض بنيه فأدخله في فيه فانتزعه عمر منه ثم بكى ،
فقال من عنده من المهاجرين : تبكى وقد فتح الله عليك وأظرك على عدوك
وأقر عينك ؟ فقال عمر : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .
لا تفتح الدنيا على أمة إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ،
وأنا أشفق من ذلك .

والاسترسال في الحديث عن زهد عمر رضى الله عنه لا تتسع له هذه
العجالة ، ولكننا التقطنا من درر حياته ما يصور هذه الحياة التي ملأت
الدنيا عملاً وعلماً وفضلاً .

أما ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد كان منذ تنفس
تسائم الحياة ربيب نعمة ودنيا عريضة ، ولكنه منذ دخل الإسلام وهب له
نفسه ودنياه ، فكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، يطعم الناس طعام

الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت ، ولما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تجهيز جيش العسرة قال عثمان رضى الله عنه : على مائة بعير باحلاسها واقتابها ، ثم حث النبي صلى الله عليه وسلم . فقال عثمان على مائة أخرى باحلاسها ، ثم حث النبي صلى الله عليه وسلم فقال عثمان رضى الله عنه : على مائة أخرى باحلاسها واقتابها ، ثم جاء بألف دينار ونثرها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلب الدنانير وهو يقول : « ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم » .

وأما ربيب النبوة ، ورضيع الأنوار المحمدية زوج سيدة نساء الدنيا ، وأبو سيدى شباب أهل الجنة الإمام المعلم ، مفرج كربات المسلمين بسيفه ، وكاشف غمراتهم بعلمه أبو حسن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه وأرضاه . فقد كان في الزهد نسيج وحده ، لو أراد القلم أن يصوره في زهده لوجب أن ينقل سيرته كلها ممثلة في سائر أحواله .

حدث كرم الله وجهه ورضي عنه بعض أصحابه عنه وعن زوجته البتول فاطمة بنت الرسول فقال : كانت أكرم أهله عليه ، وكانت زوجتي فجرت بالرحى حتى أثر الرحى بيدها ، واستتقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها ، وقمت البيت حتى أغبرت ثيابها ، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها ، فأصابها من ذلك ضر ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي . فقلت لها : انطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأليه خادما يقيقك ضر ما أنت فيه ، فذهبت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمست ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا بنية ؟ قالت : لا شيء جئت لاسم عليك واستحييت أن تسأل شيئاً ، فلما رجعت قال لها علي : ما صنعت ؟ قالت : لم أسأله شيئاً واستحييت منه ، ثم أمرها علي أن ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعت ولم تسأله شيئاً ،

فلما كانت الليلة الثالثة ذهب علي وذهبت معه فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : ما أتى بكما ؟ فقال علي : يا رسول الله ! شق علينا العمل فأردنا أن تعطينا خادماً نتقى به العمل ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أدلكما على خير لكما من حمر النعم ؟ قال علي : يا رسول الله ! نعم ، قال : تكبيرات وتسبيحات وتحميدات مائة حين تريدان أن تناما ، فتبیتان على ألف حسنة ، ومثلها حين تصبحان فتقومان على ألف حسنة .

ومن حديث عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علي إن الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها ، هي زينة الأبرار عند الله عز وجل : الزهد في الدنيا ، فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ورهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعاً ، ويرضون بك إماماً .

وفي قصة ضرار الصدائي أحد خاصة أصحاب علي رضي الله عنه في مجلس معاوية رحمة الله أصدق تصوير لحياة الإمام الزاهدة ، قال الرواة : دخل ضرار بن ضمرة على معاوية رحمه الله فقال له : صف لي علياً ، فقال ضرار أو تعفيني يا أمير المؤمنين ، قال : لا اعفئك ، قال : إذ لا بد فإنه كان - والله - بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتينا ، ويحبينا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا ، وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا يياس الضعيف من عدله ، فأشهد لقد رأيت في بعض موافقه وقد أرخى

الليل سدوله ، وغارت نجومه يقف في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ
تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأنى اسمعة الآن وهو يقول : يا ربنا
يا ربنا - يتضرع إليه - ثم يقول للدنيا إلى تغررت ؟ إلى تعرضت ؟
إلى تشوفت ؟ هيات ، هيات ، غرى غرى ، لقد بتك ثلاثاً ، فعمرك
قصير ، ومجاسك حقير ، وخطرك يسير ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ،
ووحشة الطريق .

قال : فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمة
وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال معاوية : كذا كان أبو حسن رحمه الله ،
كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من ذبح واحداً في حجرها ،
لا ترأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها ، ثم قام ضرار فخرج عن المجلس .

وإنما تحدثنا عن زهد أكرم رجال في الإسلام بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وهم خلفاؤه الأربعة قصداً إلى بيان أن الزهد ليس هو كراهية
الدنيا وعدم رعايتها رعاية تجعلها في خدمة الإيمان وأهله . لتكون لهم
العزة في هذه الأرض ، وإنما هو كما قلنا : عدم حب الدنيا حباً يشغف بها
القلوب ، فوجود الدنيا بخدافيرها في يد المؤمن دون أن يعلق بها قلبه
فتشغله عن ربه هو في الحقيقة أرفع درجات الزهد ، ويليه في مراتبه زهد
الرضا لغير واجدى الدنيا ، الصابرين الصادقين ، الذين لا يغيرهم الفقر
ولا يبطرهم الغنى .

هؤلاء الراشدون فتحت عليهم الدنيا وملكوا خزائن الأرض ، فلم
تملك منهم ذرة من أنفاسهم ولحظات حياتهم ، فكان زهدهم زهد القناعة
الواجدة ، لا زهد الحرمان ، ولا زهد التصبر ، زهدهم لم يمنعهم أن

يحملوا راية الإسلام خفاقة حتى تضعها جيوشهم في أقصى المعمور
في الأرض .

ولم يقصر غيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شوطهم
في الزهد ، فهذا طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة المبشرين بالجنة ،
وكان من أوسع الناس ثراء وأكثرهم مالا ، يدخل على زوجته سعدى بنت
عوف المريية وهو مغموم مهموم ، فتقول له : ما لي أراك كالحال الوجه ؟
ما شأنك ؟ أراك منى شيء فأعينك ؟ قال : لا ولنعم خليمة المرء المسلم
أنت ، قلت : فما شأنك قال : المال الذي عندي قد كثر وكربني ، قلت :
وما عليك ؟ أفسمه ، فقسمه حتى ما بقي منه درهم واحد ، قال راوى الحديث :
فسألت خازن طلحة : كم كان المال ؟ قال : أربعمائة ألف .

وتقول زوجته سعدى أيضاً : لقد تصدق طلحة يوماً بمائة ألف درهم ،
ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفي ثوبه ، ويقول
الحسن : باع طلحة أرضاً له بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلة
فبات أرقاً من مخافة ذلك المال حتى أصبح فقره .

وهذا حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته الزبير
ابن العوام كان من أكثر الصحابة مالا وعتاداً كان له ألف مملوك يؤدون
إليه الخراج ما يدخل بيته من خراجهم درهما ، يقسمه كله ثم يقوم من
ليلته وليس معه منه شيء .

وروى أنه لما كان يوم الجمل جعل الزبير يوصى بدينه ، ويقول :
يا بني إن عجزت عن شيء فاستعن عليه بمولاي ، قال ابنه : فوالله ما دريت
ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ فقال : الله ، قال : فوالله ما وقعت
في كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير ! اقض دينه فيقضيه ، فقتل
الزبير ولم يدع ديناراً ولا درهما إلا أرضين ودوراً ، وإنما كان دينه الذى

عليه أن الرجل كان يأنيه بالمال فيستودعه إياه ، فيقول الزبير : لا ،
ولكنه سلف ، فإني أخشى عليه الضيعة . فحسبت ما عليه فوجدته ألفي
ألف فقضيته .

وهذا سعد بن أبي وقاص أحد قواد الفتح الإسلامي وبطل القادسية
وخال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذولة عالية ، يحدث عن نفسه فيقول :
لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومالنا طعام إلا ورق الشجر ،
ويقول : كنا قوماً يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم وشدته ، فلما أصابنا البلاء مرنا عليه وصبرنا له ، واقعد رأيتني مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خرجت من الليل أبول ، وإذا أنا أسمع
بقعقه شيء تحت بولي ، فإذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ، ثم أحرقتها
فوضعتها بين حجرين ثم استنفقتها وشربت عليها من الماء فقويت بها
ثلاثاً . وسعد يروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :
« لأنافي فتنة السراء أخوف عليكم مني في فتنة الضراء ، إنكم ابتليتم بفتنة
الضراء فصبرتم ، وإن الدنيا حلوة خضرة . »

وهذا عبد الرحمن بن عوف يتصدق بشطر ماله ، وكان من أثرى
أثرياء عصره ، ثم يتصدق بأربعين ألف درهم ، ثم بأربعين ألف دينار ،
وقد حمل في سبيل الله على خمسمائة فرس ، وعلى ألف وخمسمائة راحلة .

هذا هو لون من الحديث عن زهد الأكابر الذين لم يكرهوا الدنيا ولم
يحبوها ، ولكنها أقبلت إليهم فوضعوها في أيديهم لتسكون عوناً للإسلام
والمسلمين وليس لهم منها إلا القوت بجلف الخبز والحل والزيت .

أما الحديث عن زهد الصابرين الراضين من أضراب سلمان ، وأبي ذر ،
وأبي الدرداء ، وخباب ، وسائر أهل الصفة ، ممن يعدون بالمئات والألوف

فهو الحديث عن الحياة العامة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي لا يستثنى ، ولكننا نقص على القارىء قصة رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ندرى أنعهما في الزاهدين الأثرياء الذي أعطوا فأبوا ، وشكرا ؟ أم نعهما في الزاهدين الذين رضوا فصبروا وكافحوا الدنيا ، فلم يعرفوها ولم تعرفهم مع أنها جاءتهم بقرونها فردوها وتعرضت لهم فرفضوها أعزة شاكرين صابرين .

هذا سعيد بن زيد الجمحي يوليه عمر بن الخطاب الشام خلفاً لمعاوية بن أبي سفيان ، فيخرج إلى عمله فلم يلبث إلا يسيراً حتى أصابته حاجة شديدة فباع ذلك عمر فبعث إليه بألف دينار ، فدخل بها على امرأته ، فقال : إن عمر بعث إلينا بما ترين ، فقالت : لو اشتريت لنا أدماً وطعاماً وادخرت سائرهما ؟ فقال لها : أو لا أدلك على أفضل من ذلك ؟ نعطي هذا المال من يتجر لنا فيه ، فنأكل من ربحه وضمناها عليه ، قالت : فنعم إذا ، فاشترى أدماً وطعاماً ، واشترى بعيرين وغلامين يمتاران عليهما حوائجهم وفرقهما في المساكين وأهل الحاجة ، ولم يلبث إلا يسيراً حتى قالت له امرأته إنه قد نفذ كذا وكذا ، فلو أتيت ذلك الرجل فأخذت لنا من الربح فاشتريت لنا مكانه ، فسكت عنها ، ثم عاودته فسكت عنها حتى آذته ، فقال بعض أهلها : ما تصنعين أنك قد آذيتي ، وأنه قد تصدق بذلك المال ، فبيكت أسفاً على ذلك المال ، ثم إن زوجها سعيداً دخل عليها يوماً فقال لها : على رسلك ، إنه كان لي أصحاب فارقوني منذ قريب ما أحسب أنى صددت عنهم وأن لي الدنيا وما فيها ، فسمحت ورضيت .

وقد شكوا أهل حمص - وكانت تدعى الكويقة الصغرى لكثرة شكائهم عمالهم - عاملهم سعيد بن زيد هذا فجمع عمر بينهم وبينه ، وقال اللهم لا تقبل رأى فيه اليوم ، ثم سأهم : ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى

النهار ، قال سعيد : والله إن كنت لأكره ذكره ، ليس لأهلي خادم فأعجن عجبني ، ثم أجلس حتى يختم ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم ، فقال : ما تشكون منه ، قالوا : لا يجيب أحداً بليل ، قال : ما تقول ؟ قال : إن كنت لأكره ذكره ، إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل ، قال : وما تشكون منه ؟ قالوا : إن له يوماً في الشهر لا يخرج فيه إلينا ، قال : ما تقول ؟ قال : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثياب ألبسها ، فأجلس حتى تجف ، ثم أدلكها ، ثم أخرج إليهم من آخر النهار ، قال : وما تشكون منه ؟ قالوا يغنظ الغنظة بين الأيام ، قال ما تقول ؟ قال شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قریش لحمه ثم حملوه على جذعه ، فقالوا : أتحب أن محمدًا مكانك وأنت في أهلك ؟ فقال . والله ما أحب أني في أهلي ووالدي ومحمد صلى الله عليه وسلم شيك بشوكة ، ثم نادى يا محمد ، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً ، فتصيبني تلك الغنظة .

فقال عمر : الحمد لله الذي لم يفيل فراستى فيه ، فبعث إليه بألف دينار وقال . استعن بها على أمرك ، فقالت امرأته ، الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك فقال لها . فهل لك في خير من ذلك ، فندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليهما ، قالت نعم ، فدعا رجلاً من أهل بيته يثق به فصررها صرراً . وقال له : انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان ، وإلى يتيمة آل فلان ، وإلى مسكين آل فلان ، وإلى مبتلى آل فلان ، فبقيت منها ذهبية ، فقال لزوجته ! انفق هذه ، ثم عاد إلى عمله .

* * *

وهذا عمير بن سعد وولاه عمر بن الخطاب عاملاً على حمص - أيضاً -
فمكث حولا لا يأتيه خبره . فقال عمر لمكاتبه : اكتب إلى عمير - فوالله -
ما أراه إلا قد خانتا - إذا جاءك كتابي هذا فاقبل . وأقبل مما جئيت من فيء
المسلمين حين تنظر في كتابي هذا . فأخذ عمير جرابه فجعل فيه زاده وقصعته
وعلق أدواته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشى من حمص حتى دخل المدينة .
قال : فقدم وقد شحب لونه ، وأغبر وجهه ، وطالت شعرته . فدخل على
عمر وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال عمر
ما شأنك ؟ فقال عمير ما ترى من شأنى ألسنتى ترانى صحيح البدن ،
معى الدنيا أجرها بقرونها . قال وما معك ؟ - فظن عمر رضى الله
عنه أنه قد جاء بمال - فقال : معى جرابى أجعل فيه زادى ، وقصعتى آكل
فيها وأغسل فيها رأسى وثيابى ؛ وأدارتى أحمل فيها وضوئى وشرابى ،
وعنزتى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوآ إن اعترض . فوالله ما الدنيا إلا تبع
لمتاعى . قال عمر . جئت تمشى ؟ قال نعم ! قال : أما كان لك أحد يتبرع
لك بدابة تركبها ؟ قال : ما فعلوا وما سألتهم ذلك . فقال عمر بثس المسلمون
خرجت من عندهم . فقال له عمير اتق الله يا عمر ، قد نهاك الله عن الغيبة
وقد رأيتهم يصلون صلاة الغداة . قال عمر فأين بعثتك ؟ وأى شيء
صنعت . قال وما سؤالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر سبحان الله ، فقال
عمير أما لولا أنى أخشى أن أغمك ما أخبرتك ، بعثتنى حتى أتيت البلد
فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ،
ولو نالك منه شيء لأتيتك به . قال فما جئتنا بشيء ؟ قال لا . قال جددوا
لعمير عهداً . قال إن ذلك لشيء ، ؟ لا عملت لك ولا لأحد بعدك والله .
ما سلمت بل لم أسلم . لقد قلت لنصرانى أى أخذك الله . فهذا ما عرضتنى
له يا عمر ، وأن أشقى أيامى يوم خلقت معك يا عمر . فاستأذنه فأذن له
فرجع إلى منزله . قال وبينه وبين المدينة أميال . فقال عمر حين انصرف

عمير ، ما أراه إلا خاننا ، فبعث رجلا يقال له الحارث وأعطاه مائة دينار ، فقال : انطلق إلى عمير حتى تنول به كأنك ضيف فان رأيت أثر شيء فأقبل وإن رأيت حالة شديدة فادفع إليه هذه المائة الدينار . فانطلق الحارث فاذا هو بعمير جالس يُفلى قميصه إلى جانب الحائط فسلم عليه الرجل فقال له عمير : أنزل رحمك الله . فنزل تم سأله فقال من أين جئت ؟ قال من المدينة . قال فكيف تركت أمير المؤمنين . قال صالحا . قال : فكيف تركت المسلمين ؟ قال : صالحين . قال : أليس يقيم الحدود ؟ قال : بلى ، ضرب ابناً له أتى فاحشة فمات من ضربه . فقال عمير ، اللهم أعن عمر فإني لا أعلمه إلا شديداً حبه لك . قال فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصونه بها ويطوون ، حتى أتاهم الجهد . فقال له عمير . إنك قد أجمعتنا ، فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل . قال . فأخرج الدينانير فدفعتها إليه فقال : بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن بها . قال : فصاح وقال : لا حاجة لي فيها ردها . فقالت له امرأته : إن احتجت إليهما وإلا فضعهما مواضعهما . فقال عمير . والله ما لي شيء أجعلها فيه . فشقت امرأته أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها ، ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء . ثم رجع والرسول يظن أنه يعطيه منها شيئاً . فقال له عمير : اقرأ مني أمير المؤمنين السلام . فرجع الحارث إلى عمر فقال ما رأيت ؟ قال رأيت يا أمير المؤمنين حالا شديداً . قال فما صنع بالدينانير ، قال لا أدري . قال فكاتب إليه عمر إذا جاءك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تُقبل . فأقبل إلى عمر رضى الله تعالى عنه فدخل عليه ، فقال له عمر ما صنعت بالدينانير ؟ قال قدمت لنفسي قال رحمك الله فأمر له بوسق من طعام وثوبين . فقال أما الطعام فلا حاجة لي فيه قد تركت في المنزل صاعين من شعير إلى أن آكل ذلك قد جاء الله تعالى بالرزق ، ولم يأخذ الطعام . وأما الثوبان فقال إن أم فلان عارية فأخذهما ورجع إلى منزله فلم يلبث أن هلك رحمه الله ، فبلغ عمر ذلك فشق عليه وترحم

عليه ، فخرج يمشى ومعه المشاؤون إلى بقيع الغرقد ، فقال لأصحابه ليتمن كل رجل منكم أمنية . فقال رجل . وددت يا أمير المؤمنين أن عندي مالا فأعتق لوجه الله عز وجل كذا وكذا . وقال آخر . وددت يا أمير المؤمنين أن لي مالا فانفقته في سبيل الله . وقال آخر . وددت لو أن لي قوة فامتحن بدلو زمزم لحجاج بيت الله . فقال عمر . وددت أن لي رجلا مثل عمير ابن سعد أستعين به في أعمال المسلمين .

* * *

هكذا كان زهد الصحابة رضوان الله عليهم في دنيا الناس ، فهو - كما رأينا - عند الخاصة من الأكابرة زهد القادرين الواجدين ، الذين ظلموا أنفسهم عن الدنيا ، وهي بين أيديهم ، وطوع إشارتهم وهو زهد العاميين الشاكرين الذين كانوا يعملون تعبداً وشكراً ، ورجاء وخشية .

وهو عند إخوانهم زهد المجاهدين الصابرين ، وزهد العاملين الراضين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وهكذا كانت سيرتهم الطاهرة ، وحياتهم الطيبة المباركة ، رشحت عليها أنوار النبوة فأشرقت أرض قلوبهم بضياء العبودية ، فكانوا سر اختصاص الإضافة في نداء الشهود في قوله عز وجل : (يا عبادة الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون) .

ولم يكن زهد الصحابة تعطيلاً للوهاب الإنسانية التي هي أجل نعم الله على عباده ، ولا كان زهدهم استكانة للفقر ، أو استسلاماً للعجز ، أو قناعة بغير عمل ، وهم رضوان الله عليهم صفوف الصفوة ، أعرف الخلق برهم بعد النبيين ، أقام الله بهم معالم اليقين ، وشيد بأعمالهم منار الدين ، ونشر بجهادهم الدعوة إلى الحق والعدل والرحمة .

وهل التصوف في الإسلام ، إلا صفاء البين بالأعراض من الغير ، فلا يرى العبد إلا المعبود بوصفه الحق ، ويبقى للعبد نعتة بالعبودية ببقاء وصف العبودية للمعبود ، فلا سكر للكلمة ولا فناء ، ولكنه صحو دائم ، وبقاء لا يبيد ، إذا نطقوا فالشرع أنطقهم ، وإذا عملوا فالقرآن الحكيم علمهم ، وإذا سلوكوا فحياة النبي صلى الله عليه وسلم صراطهم ومهيجهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

فهم في أعمال الدنيا ناس مع الناس كباكل ما تكون حقيقة الإنسانية عملاً وجرماً ، يجعلون بعقد ضمائرهم ونياتهم من هذه الأعمال التي يراها الناس عملاً لمحض الدنيا عبادة يتقربون بها إلى الله ، وهم بقلوبهم وأرواحهم في مقعد الصدق قائمون على قدم التعبد لله رب العالمين .

وقد نهج التابعون لهم بإحسان من تلاميذهم الذين أخذوا عنهم العلم والعمل والخلق والسلوك نهجهم فكانوا صورة مصغرة منهم ، وكان بعضهم يقول لبعض تلاميذه : لورآك رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرته ذلك ،

أخذ التابعون عن الصحابة الزهد في الدنيا والإعراض عنها فيما أخذوا عنهم من طرائق السلوك في حياتهم ، فكان زهدهم زهد جهاد وكفاح ، لأنهم عاشوا في جو تراكت فيه سحاب الفتن في آفاق المجتمع الإسلامي ، وكانت الدنيا في أيدي أقوام يشترون بها الضمائر ، وكانوا يجعلونها وسيلة لإفساد النفوس ، وكان القابض على دينه كالقابض على الجمر .

بيد أن وجود بعض الصحابة معهم في عصرهم كان ملطفاً من قبضة الفتن على قلوبهم ، فكانت لهم منادح في تفادي التعرض للهريج ، وساعدتهم على ذلك لجؤهم إلى شيء من العزلة والابتعاد عن مواطن الانحياز ، فحفظ

ذلك عليهم دينهم وباعد بينهم وبين الدنيا اختياراً تارة واضطراراً
تارة أخرى .

ولو تتبعنا المثل والصور في أشخاص التابعين كما تتبعنا بعضها في
الصحابة لانتشر الأمر على البحث ولفات ضبطه وتحديدته ، ولهذا فإننا
نكتفي في ذلك بمثال واحد ، يجمع كثيراً من الشواهد في ضروب الحياة
الزاهدة التي كان يحياها التابعون رحمهم الله تعالى .

ذكر أبو عبد الله القرطبي في تفسيره حديث أبي حازم مع سليمان بن
عبد الملك فقال : روى الدارمي أبو محمد في مسنده عن الضحاك بن موسى
قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة - وهو يريد مكة - فأقام بها أياماً ،
فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟
قالوا له : أبو حازم ، فأرسل إليه ، فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم
ما هذا الجفاء ؟ .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني ؟

قال سليمان : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني !

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين أعينك بالله أن تقول ما لم يكن ،
ما عرفتني قبل هذا اليوم ، ولا أنا رأيتك فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب
الزهري فقال . أصاب الشيخ وأخطأت .

قال سليمان : يا أبا حازم ! مالنا نكره الموت ؟

قال أبو حازم . لأنكم أخرجتم الآخرة ، وعمرتم الدنيا ، فكرهتم أن
أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب .

قال سليمان : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدم غدا على الله تعالى ؟

قال أبو حازم . أما المحسن فكأن غائب يقدم على أهله ، وأما المسيء
فكأن لا بق يقدم على مولاه ، فبكي سليمان . وقال . ليت شعري !! ما لنا
عند الله ؟

قال أبو حازم . إعرض عمالك على كتاب الله .

قال سليمان . وأى مكان أجده ؟

قال أبو حازم . إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم .

قال سليمان . فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟

قال أبو حازم . رحمة الله قريب من المحسنين .

قال سليمان . يا أبا حازم ! فأى عباد الله أكرم ؟

قال أبو حازم . أولوا المروءة والنهي .

قال سليمان . فأى الأعمال أفضل ؟

قال أبو حازم . دعاء المحسن إليه للمحسن .

قال سليمان . فأى الصدقة أفضل ؟

قال أبو حازم . للسائل البائس وجهد المقل ، ليس فيها من ولا أذى .

قال سليمان . فأى القول أعدل ؟

قال أبو حازم . قول الحق عند من نخافه أو نرجوه .

قال سليمان . فأى المؤمنين أكيس ؟

قال أبو حازم . رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها .

قال سليمان . فأى المؤمنين أحق ؟

قال أبو حازم . رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته

بدنيا غيره .

قال سليمان : أصبت يا أبا حازم ، فما تقول فيما نحن فيه ؟

قال أبو حازم : أو تعفيني ؟

قال سليمان : لا ، وإن نصيحة تلقىها إلى .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرت ما قالوه ، وما قيل لهم ؟

فقال له رجل من جلسائه : بدس ما قلت يا أبا حازم ؟

قال أبو حازم : كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء ليدينه للناس ولا يكتُمونه .

قال سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟

قال أبو حازم : تدعون الصلف ، وتتمسكون بالمروءة ، وتقسمون بالسوية .

قال سليمان : فكيف لنا بالماخذ به ؟

قال أبو حازم : تأخذه من حله ، وتضعه في أهله .

قال سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟

قال أبو حازم : أعود بالله .

قال سليمان : ولم ذلك ؟

قال أبو حازم : أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف

الحياة وضعف الممات .

قال سليمان : يا أبا حازم ارفع إلينا حوائجك .

قال أبو حازم : تمنجيني من النار وتدخلني الجنة ؟

قال سليمان : ليس ذاك إلى

قال أبو حازم : فما لي إليك حاجة غيرها .

قال سليمان : فادع لي . ؟

قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره خير الدنيا والآخرة .

وإن كان عدوك نخذ بناصيته إلى ماتحب وترضى .

قال سليمان : قط . . ؟

قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت ، إن كنت من أهله ، وإن لم تكن

من أهله فما ينبغي أن أرمى عن قوس لا وتر لها .

قال سليمان : أوصني . . . ؟

قال أبو حازم : سأوصيك وأوجز . عظم ربك ، ونزهه أن يراك

حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . . ؟

فلما خرج أبو حازم من عند سليمان بعث إليه بمائة دينار ، وكتب إليه .

أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير . فردها عليه أبو حازم ، وكتب إليه .

يا أمير المؤمنين أعيدك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً ، أو ردى

عليك بطلا ، وما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسى .

إن موسى بن عمران عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء

يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان ، فسألها فقالتا . «لانسقي حتى

يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقا لهما ، ثم تولى إلى الظل فقال . «رب إني

لما أنزلت إلى من خير فقير ، وذلك أنه كان جائعاً خائفاً لا يأمن ، فسأل ربه

ولم يسأل الناس ، فلم يفتن الرعاء وفتنت الجاريتان ، فلما رجعتا إلى أبيهما

أخبرناه بالقصة وبقوله فقال أبوهما . - وهو شعيب عليه السلام - هذان رجل
جائع ، فقال لإحدهما : اذهبي فادعيه ، فلما أتته عظمته وغطت وجهها ،
وقالت . إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فشق على موسى حين
ذكرت أجر ما سقيت لنا ، ولم يجد بداً من أن يتبعها ، لأنه كان بين الجبال
جائعاً مستوحشاً ، . فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيباً ، فقال له
شعيب . إجلس يا شاب فتعش ، فقال له موسى . أعوذ بالله ؟

فقال له شعيب : لم ؟ أما أنت جائع ؟

قال موسى : بلى ، ولكنني أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما ،
وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً .

فقال شعيب : لا يا شاب ، ولكنها عادتني وعادة آبائي ، نقرى الضيف ،
ونطعم الطعام .

فجلس موسى فأكل .

ثم قال أبو حازم في كتابه إلى سليمان . فإن كانت هذه المائة دينار
عرضاً لما حدثت ، فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطراب أحل
من هذه .

وإن كان لحق في بيت المال ، فلي فيه نظراء ، فإن ساويت بيننا وإلا فليس
لي فيها حاجة .

قال أبو عبد الله القرطبي معلقاً على هذه القصة . هكذا يكون الاقتداء
بالكتاب والأنبياء .

أنظروا إلى هذا الإمام الفاضل ، والخبر العالم ، كيف لم يأخذ على
عمله عوضاً ، ولا على وصيته بدلاً ، ولا على نصيحته صفداً ، بل بين الحق
وصدع ، ولم يلحقه في ذلك خوف ولا فزع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا يمنع أحدكم هيبة أحد أن يقول الحق أو يقوم به حيث كان . »

وفي التنزيل « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ،

* * *

ونحن نقول تأسيا بأمتنا من أعلام الهداية والسلوك . إن الإمام القرطبي نظر إلى هذه القصة من زاوية كريمة شريفة لينبه إلى ما يجب أن يكون عليه أئمة الهدى من أعلام الإسلام إذا دفعتم الأحداث إلى مجالس الولاية ومن ييدهم أمر سلطان هذه الأمة من الجهر بالحق في أدب العلم والدعوة إلى الله تعالى وعز التقي ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول . أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر .

ولكن هذه القصة لها زوايا تربوية كثيرة ، لو حاولنا استيعاب النظر فيها لاقتضت منا رسالة خاصة ، بيد أننا سقناها قصداً إلى ما يتصل منها بموضوع « الزهد » الذى هو الدعامة الأولى من دعائم « التصوف » فى الإسلام ، وهى تمثله أصدق تمثيل وتصوره أروع تصوير يبين مقدار التأسى بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومقدار الحرص على متابعتة صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه الكريمة .

وقد يكون من زواياها التى تتصل بالتصوف فى الإسلام بأوثق عراه أنها تصور سلوك أئمة الهدى فى حياتهم ، وأنهم لا يتهاقون على مجالس السلطان ، ولا يتزاحمون على أبوابه ، بل إنهم لا يعرفون السلطان ولا يعرفهم السلطان حتى يدل عليهم ، لأنهم يعرفون أن مجالس أولئك تحيا بالنفاق والمداهنة فى الحق وبيع الدين بالدنيا ، وليس للجهر بالحق عندهم ثمن أقل من بذل الأرواح إلا من عصم الله .

لكنهم إذا دعوا أجابوا ، وإذا أريدوا على دينهم بذلوا أرواحهم
جهاداً في سبيله ، وإذا استنصحووا نصحووا لله ولرسوله وعامة المؤمنين
وأئمتهم .

وهذا هو « التصوف » الهادي الممتدى التابع من منابع الهداية الربانية ،
وقف به أصحابه في منازل العبودية ، لا يتطلعون إلى شيء من دنيا الناس ،
ولا يطلبون لأنفسهم شيئاً مما يطلب الناس .

ولأبي حازم إخوة أشباه في هذا السمو بمقام العلم من التابعين كما كان
للصحابة في أخلافهم وسلوكهم إخوة أمثال في التسامى بمقام الصحبة المشرفة
على كل مقام .

ولو لا خشية الإطالة والخروج عن حدود المطلوب « هنا » لتركنا لرسن
القلم المجال ، ولكننا نكتفي بالمثل والشاهد نموذجاً مصوراً لأمثاله بصورة
نفسه ، فإذا ذكرنا أبا حازم ، فقد ذكرنا أبا سعيد الحسن بن أبي الحسن
البهرى ، وذكرنا سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ، وذكرنا شهيد
الطغیان الحجاجي سعيد بن جبير ، وذكرنا ثابت البناني ، وأبا مسلم الخولاني ،
وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد بن أب بكر الصديق ، ومطرف بن
عبد الله المزني ، ومورقا العجلي ، وصلة بن أشيم ، وغيرهم وغيرهم ممن
لا يحصيهم العد ، ولا يحصرهم القيد .

وكذلك من جرى في شوطهم من أتباع التابعين وتلاميذهم من أمثال
حبیب العجمي ، وأبي بكر الشبلي ويشر بن الحارث الحافي ، ومعروف
الكرخي ، والمحاسبي ونظرائهم ممن كان « التصوف » عندهم عملاً وتعبداً ،
ومن تكلم منهم فإنما يتكلم بفتح في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ،
لا يجاوزها حتى نجم من اتسع وتوسع ، وتحدث وأحدث من العلم في

« التصوف ، نظریات نقلتہ إلى « تصوف ، نظری ، له فلسفتہ وأصولہ
وقواعده واصطلاحاته ، واختلفت الأنظار ، وكثرت النقول والأقوال ،
والخواطر والكلمات ، وبقي من حفظه الله على السمات الأطيب ، تحقيقاً
لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق ،
لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي وعد الله » .



مراقبة الله تعالى

أما الدعامة الثانية من دعائم «التصوف في الإسلام» فهي «مراقبة الله تعالى» وهي كدعامة «الزهد» تنبع من القرآن الكريم والسنة المطهرة وحياتة رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقع سيرته الكريمة، وحياتة أصحابه في تطبيقهم السلوكي لما شاهدوه من حياتة صلى الله عليه وسلم وعلومه من القرآن الكريم، وحياتة تلاميذهم من التابعين.

وسيدلنا في هذا هو سيدلنا في «الزهد» نسوق النصوص والحوادث، ونصور النماذج في وقائعها البارزة حتى تدبّر لنا معالم الطريق في فهم «التصوف في الإسلام» ونتبين أن هذا «التصوف» هو في حقيقته العملية التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم بإحسان روح الإسلام وخلاصة آدابه السامية التي تمثلت عملاً في أخلاق المسلمين الأولين.

نزل القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هادياً مرشداً، ومؤدباً مهندياً، ومشرعاً معلماً، وله في ذلك كله طرائقه الخاصة التي توظف العقول وتنبيه القلوب، وتحرك الضمائر حتى تقع هدايته وإرشاده موافعاً من أغوار النفس الإنسانية، ويقع أدبه وتهذيبه من القلوب موقع الرضا والقبول، ويقع تشريعه وتعليمه من العقول موقع الحكمة المرغبة في الامتثال - وهو في إطار الهداية العامة والخاصة - أمرناه، موعده واعد، مرغبه مرهب، داع محذر يقصد إلى التحبيب في الخير، والتنفير من الشر، توجيهاً للحياة وجهة الإصلاح.

ونراه ربط الأمر بالوعد، والنهي بالوعيد بياناً لمنزلة الشواب والعقاب، اللذين جعلهما الله في طبائع الناس حوافز للاستجابة، وحوافز دون

الافتحام ، والنفوس الإنسانية واقعة بين شراة الغرائز ومنطق العقل وإشراق الروح (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها) ولا بد لها لكي تستجيب إلى منطق العقل وتتغلب على شراة الغرائز وترقى إلى أفق الإشراق الروحي من قوة قاهرة تزعمها حتى لا تستكين وتستسلم لدواعي الغرائز وقد جعل الله لها هذه القوة القاهرة في داخل ذاتها ، تلك هي قوة الضمير ، وهذا الضمير هو مهبط الإلهام ، فإذا استيقظ هذا الضمير في داخل النفس الإنسانية استشعرت مراقبة الله ، واستحضرت عظمتة وعلمه المحيط ، وتمثلت قدرته وقهره ، وأنه المسالك لنواصي العباد الرقيب عليهم المحصي لأعمالهم ، الذي لا يخفى عليه خافية (ويعلم ما في أنفسكم فاحذروه) (قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) إذا استشعرت النفس الإنسانية ذلك ، واستحضرت العاملون في الحياة عظمة الله ، واطلاعه على علانيتهم وسريرتهم وأنهم موقوفون بين يديه ، مسئولون عن أعمالهم ، محاسبون على ما قدموا من آثار في حياتهم مجزيون على الخير خيراً وثواباً ، وعلى الشر نكالا وعقاباً إذا استشعرت ذلك كانت في عملها مراقبة لله تعالى ، تحذر بطشه وعقابه وترجو رضاه وثوابه (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

واستحضار عظمة الله تعالى ومراقبته عند أى عمل يقوم به الإنسان هو الإحسان الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل فقال

(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والعبادة في الإسلام كل عمل يأتي به المؤمن على وجه الإخلاص والمراقبة لله تعالى (إنما الأعمال بالنيات) سواء أكان ذلك العمل من أعمال الدنيا وإصلاح الحياة، أو كان من عمل الآخرة وتهذيب النفس وتطهير القلب وتصفية الروح، وهذا معنى قول الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصاً له الدين إلا لله الدين الخالص) والآية عامة تتناول جميع التكاليف التي أنزل بها الكتاب من الأوامر والنواهي، فمن راقب الله وألزم قلبه في جميع أعماله أن الله تعالى يراه في سره وعلانيته استحياء من جلال الله أن يراه ربه على ما لا يحبه منه، فيستنير قلبه ويسكنه الخوف من بطش الله، ويدوم عليه الحذر من سخطه، وغضبه، مشفقاً على نفسه معظماً لأمر الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يرعى في عمله إلا جلال الله وعظمته حتى يصغر في عينه كل مخلوق دون الله تعالى.

روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه مر في إحدى سفراته بسلام يرعى غنماً، فقال له تبيع من هذه الغنم واحدة، فقال الغلام: إنها ليست لي، فقال ابن عمر - يمتحن أمانته: قل لصاحبها: إن الذئب أخذ منها واحدة؟ فقال الغلام: فأين الله؟ فكان ابن عمر زمناً طويلاً يردد على نفسه قول الغلام: فأين الله؟

ومراقبة الله في السر والعلن منزلة من منازل المخلصين الأوابين، وفيها يقول بعضهم: من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه.

وآيات المراقبة لجلال الله تعالى باستحضار علمه المحيط بسرائر خلقه، واستحضار خشيته جاءت في القرآن الكريم بأساليب متنوعة وأفانين مختلفة لتجذب النفوس إلى مسالكها، ونحن نورد منها ما يأتي:

(١) يقول الله تعالى (ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء

هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

(٢) ويقول الله عز شأنه (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير)

(٣) ويقول تبارك وتعالى (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمرا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

(٤) ويقول جل جلاله (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) .

(٥) ويقول عز وجهه (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) .

(٦) ويقول عز شأنه فى وصف حال أهل مراقبته (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) ومعنى ذلك فى حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هو الذى يزنى ويسرق ويشرب؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (لا ، ولكن هو الذى يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه) .

(٧) ويقول ربنا عز جانبه (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) .

(٨) ويقول تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

(٩) ويقول جل شأنه (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد) .

(١٠) ويقول تبارك وتعالى (فإلهم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين
الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي
الصلاة وما رزقناهم ينفقون) .

(١١) ويقول تعالى (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا
به فتخبت له قلوبهم) .

(١٢) ويقول سبحانه (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم
وإذا تليت آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) .

(١٣) ويقول عز وجل (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم
ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما
كانوا ثم ينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) .

(١٤) ويقول تعالى (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون
من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من
مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في
كتاب مبين) .

هذه آيات من القرآن الكريم سقناها كنماذج لرعاية مقام المراقبة ،
وهو مقام له شأنه العظيم عند أكبر الصوفية ، وهو ركن من أركان التصوف
في الإسلام ، نادى به القرآن وأكثر من التنبيه عليه وجعله أساس الإيمان
الصحيح ومدخل الإخلاص إلى قلوب العابدين .

وهو من أوسع المقامات ، يبدأ بالتوبة العامة من طاعة المخالفات
الشرعية وهذه توبة العامة ، أما توبة الخاصة فهي التبرؤ من الاغيار
والمعوقات عن سير النفس إلى منازل التبتل والانقطاع عن الخلق .

وهناك توبة خاصة الخاصة . وهي عدم الالتفات الى ما كان وما يكون
تعبداً وخشية ، وهذا ما يرمز اليه الحديث الصحيح في قوله صلى الله عليه
وسلم (إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) وهذا استغفار شكر ومراقبة
لجلال الله وعظمته . لأنه صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه وأخشاهم
له ، وقد روى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع
شيئاً ترخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحمد
الله ثم قال . ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني لأعلمهم
بالله وأشدهم له خشية .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه . لو تعلمون ما أعلم اضحكتم
قليلاً ، ولبيكتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولا خرجتم إلى
الصعدات تجأرون إلى الله . وفي حديث عبد الله بن الشيخير أنه قال ،
أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

وهذه جملة من الأحاديث تدل على كثير من المعاني التي أشرنا إليها
في عناصر التصوف العملي .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(ان الله عز وجل قال . من أذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب
إلى عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب
إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي
يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فإني سألني عبدي
أعطيته ، وإن استعاذني أعذته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي
عن قبض عبدي المؤمن يكره الموت وإكره إساءته - أو مساءته) .

وهذا الحديث الصحيح من أقوى ما يتمسك به القوم في دعم طريقهم إلى الله بالسنة المطهرة .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل) فقال رجل . من هم وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم ؟ قال . (قوم يتحابون بروح الله عز وجل ، من غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها بينهم ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس) ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعن عمرو بن الجموح رضى الله عنه قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . (قال الله عز وجل ، إن أوليائي من عبادى وأحبائي من خلقى الذين يذكرون بذكركى وأذكرك بذكركم) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال . (إن لله عز وجل ضنائن من عباده يغذيهم فى رحمته ، ويحييهم فى عافيته ، إذا توفاهم توفاهم إلى جنته . أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها فى عافية) .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال . مر عمر بمعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنهما وهو يبكى ، فقال . ما يبكيك يا معاذ ؟ فقال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا شهدوا لم يعرفوا ، أولئك أئمة الهدى ومصايح العلم) .

عن قيس بن أبي حازم قال . سمعت سعد بن أبي وقاص يقول . والله
إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله عز وجل ، ولقد كنا نغزوا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبة وهذا
السمر حتى قرحت أشداقنا ، وحتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة
ماله خاط .

وعن حذيفة بن اليمان قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
« يا حذيفة إن في كل طائفة من أمتي قوماً شعثاً غبراً إياي يريدون ،
ولياي يتبعون ، وكتاب الله يقيمون . أولئك مني وأنا منهم وإن
لم يروني » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
« من سأل عني أو سره أن ينظر إلى فليتنظر إلى أشعث شاحب مشمر لم
يضع لبنه على لبنة أو قصبه على قصبه . رفع له علم فشمر إليه ، اليوم المضمار
وغدا السباق والغاية الجنة أو النار » .

وأخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت
يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظر
ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : كأنني انظر إلى عرش
ربي بارزاً ، وكأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنني أنظر إلى
أهل النار يتضاغون فيها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا حارث
عرفت فالزم . عرفت فالزم . عرفت فالزم .

وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : مؤمن نور الله قلبه .
ومن طريق عبد الرزاق ، زاد فيه أن حارثة قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

ادع الله لي بالشهادة ، فدعاه ، فأغبر على سرح المدينة فخرج حارثة ،
فقاتل فقتل .

وأخرج الفريابي قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية :
(فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا : كيف يشرح
صدره ؟ قال : (نور يقذف به فيه فينشرح له وينفسح) قالوا : فهل لذلك من
أمانة يعرف بها ؟ قال : (الإجابة إلى دار الخلود ، والتجاني عن دار الغرور
والاستعداد للموت قبل لقاء الموت) .

وعن علي كرم الله وجهه أنه صلى الغداة ، ثم لبث في مجلسه حتى
ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبة ، فسأله بعض أصحابه عن حاله تلك ؟
فقال : لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أرى
أحداً يشبههم ، والله إن كانوا ليصبحوا شعماً خبراً صفراً بين أعينهم مثل
ركب المعزى ، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحن بين أقدامهم وجباههم ،
إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح ، فانهملت أعينهم حتى تبل
والله ثيابهم ، والله لكان القوم باتوا غافلين .

وفي حديث البراء بن مالك يقول النبي صلى الله عليه وسلم . « رب
أشعث أغبر ذى طمرين تنبوء عنه أعين الناس ، وفي رواية « مدفوع عن
الآبواب ، وفي أخرى « لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء
ابن مالك » .

وفي حديث إبراهيم بن آدم عن عباد بن كشير بن قيس قال . جاء
رجل عليه برودة له ، فقعده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء رجل
عليه أطهار فقعده ، فقام الغنى بثيابه يضمها إليه ، فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : (أكل هذا تقذراً من أخيك المسلم ؟ أ كنت تحسب أن يصيبه من

غناك شيء أو يصيبك من فقره شيء؟ فقال) الغنى : معذرة إلى الله وإلى رسوله من نفس أمارة بالسوء وشيطان يكيدني ، أشهدك يا رسول الله أن نصف مالي له ، فقال الرجل الفقير : ما أريد ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ذلك؟ قال . أخاف أن يفسد قلبي كما أفسده .

ومقام المراقبة مفتاح لجميع المقامات الصوفية ، يندرج تحته مقامات الصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والإخلاص ، والحياء ، والرضا ، والتسليم ، والبذل ، والشفقة على الخلق ، وغيرها .

وللصحابة رضوان عليهم في مقام المراقبة منازل خصوا بها تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالصديق كان من شدة مراقبته لله يشم من جوفه رائحة الكبد المشوى ، وكان كثيراً ما يرى آخذاً بلسانه يجذبه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

ويروى عنه أنه كان له مملوك يغزل عليه ، فأناه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ، ولم تسألني الليلة؟ قال : حملني على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا؟ قال . مررت بقوم في الجاهلية فرقت لهم فوعدوني ، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني ، قال : إن كدت أن تهلكني ، فادخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقبل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقبل له . يرحمك الله !! كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ قال . لو لم تخرج إلا مع نفسي لا خرجتها ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به ، نخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة .

ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت . لبست مرة درعاً لي جديداً ، فجعلت أنظر إليه وأعجبت به ، فقال أبو بكر . ما تنظرين؟ إن الله ليس

بناظر إليك اقلت . ومم ذلك ؟ قال . أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقتته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ، قالت . فنزعته فتصدقت به ، فقال أبو بكر . عسى ذلك أن يكفر عنك .

* * *

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد التعلق بأخلاق رسول الله الله صلى الله عليه وسلم وحب التأسى به في سائر أحواله ، روى أنه لما اتسع على الناس الرزق في عهده ، وكثر المال قالت له ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها . يا أمير المؤمنين . لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك ؟ ! فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير ، فقال لها : إني سأخاطبك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قسوة العيش ، فما زال يذكرها حتى أبكاها فقال لها : والله إن قلت ذلك ، أما والله لئن استطعت لأشاركنهما - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه - بمثل عيشهما الشديد لعل أدرك معهما عيشهما الرخى .

وكان رضى الله عنه إذا نزل بالناس هم يكاد يهلك من الحزن اهتماماً بأمرهم ، فيخلع ثيابه ، ويلبس ثوباً قصيراً ، لا يكاد يبلغ ركبتيه ، ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار وعيناه تذرغان حتى يغشى عليه .

ومما يروى عنه في شدة مراقبته لله تعالى أنه دخل السوق ذات يوم فرأى رجلاً يقال له سلمة قاعداً في السوق ، فقال له : هكذا يا سلمة عن الطريق فخفقه بالدرة غفقة لم تصب منه إلا طرف ثوبه ، فتحول سلمة عن الطريق ، وسكت عنه عمر حتى إذا كان العام المقبل لقيه في السوق فقال له . يا سلمة ! أردت الحج العام ؟ قال سلمة : نعم ، فأخذ بيده حتى أدخله معه بيته ، فأخرج له كيساً به ستائة درهم ، فقال له : يا سلمة

(٤ - التصوف)

خذها واستعن بها على حجك ، وأعلم أنها من الغفقة التي غفقتك عاماً
أزل ، قال سلمة : يا أمير المؤمنين والله ما ذكرت لها حتى ذكرتنيها ، فقال
عمر : وأنا والله ما نسيتها .

ويروى أن علياً كرم الله وجهه - وكان معه الحسن والحسين - لقي
عمر في بعض طرق المدينة فسلم عليه وأخذ بيده ، والحسن والحسين
يكتنفاهما عن يمينها وشمالها فبكى عمر ، فقال له علي رضي الله عنه :
ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : ومن أحق بالبكاء مني وقد وليت
أمر هذه الأمة أحكم فيها ولا أدري أمسى أنا أم محسن ؟ فقال له علي :
والله إنك لتعدل في كذا ، وتعدل في كذا ، يُعَدُّ له محاسنه في سياسته
لرعية ، فما منعه ذلك من البكاء ، ثم تكلم الحسن ، فذكر من ولاية عمر
وعدله فلم يمنع ذلك من البكاء ، فتكلم الحسين بمثل كلام الحسن ، فانقطع
بكاء عمر عند كلام الحسين ، ثم قال لهما : أتشهدان بذلك يا ابني أخي ،
فسكتا فنظرا إلى أبيهما فقال علي : اشهدا وأنا معكما شهيد .

وكان عمر رضي الله عنه يمر على الناس متستراً ليتعرف أخبار رعيته ،
فمر بعجوز في خبائها فسلم عليها وقال لها : ما فعل عمر ؟ قالت : لا جزاء
الله عني خيراً !! قال لها : ولم ؟ قالت : لأنه والله ما نالني من عطائه منذ
ولي أمر المؤمنين دينار ولا درهم ، فقال لها : وما يُدري عمر بحالك وأنت
في هذا الموضع ؟ قالت : سبحان الله !! والله ما ظننت أن أحداً يلي علي
الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها ، فبكى عمر وقال : واعمر اه كل
أحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر !! ثم قال لها : يا أمة الله ! بكم تبيعي
ظلامتك من عمر ؟ فإني أرحمه من النار ! فقالت : لا تهزأ بنا يرحمك
الله ، فقال لها : لست بهزاء ، فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة
وعشرين ديناراً ، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب وابن مسعود

رضى الله عنهما فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين : فوضعت يدها على رأسها وقالت : واسوأناه ؟ شتمت أمير المؤمنين في وجهه ، فقال لها عمر : لا بأس عليك رحمك الله ، ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً ، فما تدعى عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه برىء . »

شهد على ذلك على بن أبي طالب وابن مسعود ، ثم رفع الكتاب إلى ولده وقال : إذا مات فاجعله في كفنى ألقى به ربي .

ذكر الله تعالى

أما ذكر الله تعالى فهو الثمرة المباشرة لمقام « المراقبة » وهو أفضل العبادات ، وأشرف الطاعات ، وأعلى درجات الحسنات ، وهو مطية السائرین إلى منازل الشهود ، والطالبيين لنفحات الجود ، وقد جاءت بذلك آيات القرآن المبين ، وأحاديث الرسول الأمين ، ومثلته حياته المباركة وحياته أصحابه والتابعين وخواص المؤمنين أكمل تمثيل .

يقول الله تعالى : (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) ولأرباب القلوب من عباد الله المقربين عبارات في الكشف عن ذكر الله لعبده ، وذكر العبد لربه ، تختلف في ألفاظها وتتوحد في غاياتها ، وذلك كقول بعضهم : اذكروني بطاعتي ، اذكركم بإحسان وثنوا بي .

ويقول آخرون : اذكروني بالمجاهدة أذكركم بالهداية .

وتقول طائفة : اذكروني بالدعاء والضراعة اذكركم بالإحسان والإجابة .

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول أحد النجباء : اذكروني بالصدق والإخلاص اذكركم بمزيد الإختصاص .

وفي هذه الآية الكريمة لطيفة ذوقية ، وهي أن الله تعالى رتب فيها ذكره لعباده على ذكرهم له ، وهذا يفيد أن المراد ذكر خاص ، لا مطلق ذكر وإلا فالله تعالى ذاكر عباده وإن لم يذكره ، ونعمه عليهم سابقة ، تحيط كافرهم ، وتغمر مؤمنهم .

ولهذا لما ذكر الله مقام المحبة - وهو مقام إختصاص - في قوله تعالى .
(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه) قدم محبته لأهل القرب من عباده على محبتهم له ، وجعل محبته لهم وسيلة إلى محبتهم له ، فيها جذبهم إلى رحاب شهوده ، فتولوا بحبه ، فالذكر يقع من العامة والخاصة ولا يكون ذكر الله الخاص لعباده إلا بذكر الخاصة من عباده ، أما المحبة فهي من مبدئها مقام الخاصة لا تكون إلا لهم ، وهي لباب الفضل وخلاصة الرضا ، فكان هو جل شأنه المبتدأ بها ليستخلص بها أهل وده من مزاحمات الأغيار ، وهو عز وجل غيور لا يرضى أن يكون في قلوب أحبائه غيره ، وهو الولي الحميد .

ويقول تبارك وتعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفسحاء والمنكر ولذكر الله أكبر) .

ويقول جل شأنه : (وأقم الصلاة لذكري) .

ويقول عز وجل : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) .

ويقول عز اسمه . (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم

مغفرة وأجرًا عظيمًا) .

ويروى الترمذى فى جامعہ عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال . « ألا أنبؤكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا . بلى يا رسول الله ، قال . « ذكر الله تعالى » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وسلم . أى العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال . « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » قلت . يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال . « لو ضرب بسيفه فى الكفر والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه » .

قال أرباب القلوب من أهل الأخلص والصفاء . ذكر الله تعالى يجرى على مراتب ثلاث .

المرتبة الأولى :

ذكره تعالى بالقلب والتفكر فى دلائل وجوده ، وبراهين وحدانيته وآيات جلاله وعظمته بما نصبه فى الكون من شهود حكمته فى خلقه وبديع صنعه ، ومحكم تدبيره ، وعظيم فضله ، وواسع جوده وغامر إحسانه .

وهذه المرتبة من ذكر الله بالقلب والتفكر هى المذكورة فى قواه تعالى . (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم حين نزات : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .

وفي قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله
تطمئن القلوب) .

وفي هذه المرتبة من مراتب الذكر يقول النبي صلى الله عليه وسلم
(لا عبادة كالتفكير) ويقول صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من
عبادة سنة) .

وهذه المرتبة في الذكر مقام المنقطعين إلى الله من أصفياء عباده الذين
اتخذوا من التفكير في آيات الله ، وما نصبه من الدلائل في خلقه مطايا
لشهود عظمة الله في بديع الأسرار الكونية ، وجعلوا من القيام بواجب
العبودية والتزام مراسم الشريعة ظاهرا وباطنا أساسا لتبوءهم منازل القرب
وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم (بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع
رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء ، وقال : أشهد أن لك ربا وخالقا ،
اللهم اغفر لي ، فنظر الله إليه فغفر له) .

ويحكى أن الإمام الرباني سفيان الثوري ، وهو من أساطين أئمة الإسلام
رضى الله عنه - صلى خلف مقام إبراهيم ركعتين ، ثم رفع رأسه فنظر إلى
النجوم وإلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليه ، وكان رضى الله عنه
يبول الدم من طول حزنه وفكرته .

وروى ابن القاسم رحمه الله عن الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه أنه
قال : قيل لأم الدرداء : ما كان أكثر شأن أبي الدرداء ؟ قالت : كان
أكثر شأنه التفكير .

ويروى أن أبا سليمان الداراني رضى الله عنه قام من الليل ، فلما أخذ
قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل - وعنده ضيف - فرآه لما أدخل إصبغه في
أذن القدح أقام لذلك متفكرا حتى طلع الفجر ، فقال له ضيفه : ما هذا
يا أبا سليمان ؟ قال : إني لما طرححت أصبغ في أذن القدح تفكرت في قوله

تعالى (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون) وتفكرت في حالي .
وكيف أنلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة ، فما زلت في ذلك حتى
أصبحت .

وذكر الإمام ابن عطية في تفسيره أن أباه حدثه عن بعض علماء
المشرق ، فقال : كنت بائناً في مسجد الأقدام بمصر - هو مسجد كان في
مصر القديمة - فصليت العتمة ، فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له
مسجى بكسائه حتى أصبح ، وصلينا نحن تلك الليلة ، فلما أقيمت صلاة
الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس ، فاستعظمت
جراته في الصلاة بغير وضوء ، فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه ،
فلما دنوت منه سمعته ينشد شعراً :

مسجى الجسم غائب حاضر منتبه القلب صامت ذاكر
منقبض في الغيوب منبسط كذاك من كان عارفاً ذاكر
يبيت في ليله أحياناً فكراً فهو مدى الليل نائم ساهر
قال : فعلت أنه من يتعبد بالتفكير فانهرفت عنه .

المرتبة الثانية :

هذه المرتبة من مراتب الذكر تتمثل في الذكر باللسان مع يقظة القلب
وفهم ما يردده اللسان ، وهذه المرتبة تجمع بين عمل الجوارح وعمل القلب ،
وهي مرتبة العلماء الذين تفقهوا في الدين ، وأقاموا منار الشريعة على دعائم
اليقين ، فعملوا بما علموا ، وقاموا لله على قدم المجاهدة ، فعلمهم الله وهذا
ما يشير إليه قول الله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) أي اتقوه بمجاهدة
أنفسكم في أداء ما طلب منكم مما علمتوه من الأمر والنهي ، فإذا قتم بذلك
فتح الله لكم أبواباً من العلم لم تكونوا تحصلون عليها بمجرد التعلم والنظر .

وهؤلاء العلماء أصحاب هذه المرتبة هم الأدلاء على الله ، وهم حجة الله على خلقه يهدي بهم من يشاء ، لأنهم يأخذون معالم الهداية عن الله من شريعته ووحيه إلى أمينه الرسول الكريم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وهم الذين خصوا بالخطاب في قول الله تعالى (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفروا) فقد طلب منهم أن يذكروه بالمجاهدة والإخلاص ليذكركم بمزيد القرب والاختصاص ، وذكر الشكر بعد الذكر دليل على أن الذكر هنا معناه العمل بالجوارح ، واللسان مقدمها وعنوانها ، ولذلك عقبه بالتحذير من كفران نعمته .

وفي معنى هذه الآية من جهة إرادة المعنى الجامع بين ذكر الجوارح وذكر القلب قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) .

ويدل لهذا المعنى في هذه المرتبة قول النبي صلى الله عليه وسلم (من أطاع الله فقد ذكره) وفي الحديث الصحيح من رواية البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن اقترب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا انتربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) وهذه العبارات تمثيل لرضاء الله تعالى على عباده الذاكرين له ، وأن هذا الرضا يتنزل في مراتب متفاوتة على حسب تفاوت طرائق المجاهدة التي يقوم بها الذاكرون مقرونة بالإخلاص .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى عليه السلام قال : (يارب أقرب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ قال الله تعالى (يا موسى أنا جليس من ذكرني) .

وفي حديث أنس بن مالك من رواية الترمذي قال النبي صلى الله عليه وسلم
(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا) قالوا وما رياض الجنة ؟ قال النبي
صلى الله عليه وسلم (حلق الذكر) .

وروى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
(إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا
قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء
الدينا ، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - ما يقول عبادي ؟ قالوا . يسبحونك ،
ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك ، فيقول الله . هل رأوني ؟ فيقولون .
لا والله ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد
لك عبادة ، وأشد لك تمجيذا ، وأكثر لك تسبيحا ، فيقول الله عز وجل :
فماذا يسألوني ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون :
لا والله ما رأوها فيقول : فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها كانوا أشد
حرصا عليها ، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ، فيقول : فممن يتعوذون ؟
فيقولون : من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها ،
فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ،
وأشد لها مخافة ، فيقول : فأشهدكم أنني قد غفرت لهم . يقول ملك من
الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، فيقول الله : هم الجلساء
لا يشقى بهم جليسهم) . وفي حديث مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
(لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة
ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده)

ومن رواية مسلم أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (سبق المفردون ،
قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات)
وعن أبي سعيد الخدري من رواية مسلم في الصحيح أنه قال : خرج
معاوية على حلقة في المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ،

قال : آله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال :
أما إني لم استخلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله
صلى الله عليه وسلم أفل عنه حديثاً مني ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : ما أجلسكم؟ قالوا : جلسنا نذكر الله
ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومن به علينا ، قال : آله ما أجلسكم
إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إني لم استخلفكم
تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل ، فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم
الملائكة .

وروى الترمذي أن رجلاً قال : يا رسول الله ؟ إن شرائع الإسلام
قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبهت به ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :
لا يزال لسانك رطباً بذكر الله .

وقد تقدم حديث أبي الدرداء من رواية الترمذي أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال (ألا أنبؤكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها
في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن
تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : بلى يا رسول الله؟
قال : ذكر الله تعالى) .

وهذا الحديث فيه تفضيل للذكر على الجهاد والجهاد أفضل الطاعات ،
وكذلك سائر الأحاديث المتقدمة تجعل للذكر درجة رفيعة جداً ، وقد
يدور في خلد بعض الناس أن يستبعد ذلك ويقول : كيف تكون للذكر
هذه الدرجة العظيمة وهو من أيسر العبادات وأقلها مشقة؟

وقد عرض لهذه الشبهة الإمام الغزالي رحمه الله فقال : فإن قلت : فما
بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع
من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟

فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم الميكاشفة ، والقدر الذي يسمح
بذكره في علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور
القلب ، فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى ، وفي الاخبار
ما يدل عليه ، وحضور القلب في لحظة بالذكر ، والذهول عن الله عز وجل
مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى
على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات ، بل به تشرق
سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية .

وللذكر أول وآخر ، فأوله يوجب الأنس والحب ، وآخره يوجبه
الأنس والحب ، ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأنس والحب ، فإن المريد
في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر
الله عز وجل ، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور .
ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد في العادات أن تذكر
غائباً غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيجبه ،
وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر ، ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف
أولاً صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخرأ بحيث لا يصبر عنه ، فإن
من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، ومن أكثر من ذكر شيء وإن كان
تكلفاً أحبه .

فلذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له ،
ثم يمتنع الصبر عنه آخرأ فيصير الموجب موجباً والثمر مثمراً ، وهذا معنى
قول بعضهم : كابدت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة ،
ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس إلا من
المداومة على المكابدة والتكاف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً .
اه . كلام الغزالي .

هذه النصوص المتقدمة تدل بظواهرها على أن ذكر الله تعالى باللسان مع حضور القلب ، وفهم معنى الأسماء الحسنى التي يذكر بها الله سبحانه وتعالى من أرفع درجات الطاعات وأفضل مراتب العبادات ، ومن هذه النصوص أخذ السادة الصوفية العمل في أذكارهم وأورادهم التي رتبوها للمريدين والسالكين ، وقد قيل لبعضهم : إننا لنذكر الله تعالى ولا نحمد حلاوة لذكرنا ، فقال : الحمدوا الله على أن زين جارحة بن جوارحكم بذكر اسمه تعالى .

كما أن هذه النصوص تدل لمشروعية حلق الذكر وفضل مجالس الذكر ، غير أنه يجب أن يعلم أن هذا الذكر الذي يترتب عليه صفاء القلب وإشراق الروح بأنوار التجليات الإلهية إنما هو ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى الواردة في القرآن والسنة ، مع الأدب الكامل واستحضار عظمة الله تعالى وإخلاص التوجه إليه ،

المرتبة الثالثة :

هذه المرتبة هي مرتبة عامة المؤمنين ، وهي أن يذكر المؤمن الله تعالى بلسانه . وقلبه غافل لاهٍ مشغول بشواغل الدنيا ، ولكن هذه الغفلة القلبية غفلة طارئة ، وليست متأصلة في قلب المؤمن ، بل هي عارضة بعروض دواعيها الدنيوية ، فإذا نبه المؤمن بالمواعظ والزواجر ، والترغيب في ثواب الله ، والترهيب من عقابه تنبه وتذكر ، وقد يثمر هذا التنبيه الندم والبكاء ويقظة القلب ، وأصحاب هذه المرتبة يباحقون بفضل الله بمرتبة الذاكرين لله ولكنهم لا يساؤونهم في الفضل إلا أن يشاء الله .

المرتبة الرابعة :

هذه المرتبة لا تدخل في مراتب الذكر لله تعالى إلا من قبيل اللفظ والتسمية ، وإزالة شبهة ذكرها في القرآن الكريم مقرونة بوصف أصحابها ،

وتلك هي ذكر الله تعالى باللسان ذكراً قليلاً تستجلبه داعية الخداع والرياء والكذب مع غفلة القلب غفلة متأصلة ، لا تمحوها الزواجر ، ولا تزيلها الرغائب ، وهي مرتبة المنافقين الذين إذا قاموا للصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ،

وهذه المرتبة وإن كانت في أصل ورودها في القرآن الكريم واقعة على أهل النفاق العقدي ، فإنه يخشى أن تلحق برشاشها أهل النفاق العملي ، الذين تلمههم الدنيا فلا يفيقون منها إلا فؤاقاً في الحين بعد الحين ، ثم يعودون لما كانوا فيه ، فإذا دعوا إلى الله لم يستجيبوا إلا متثاقلين ، وللمتحن كل مؤمن إيمانه ليحلم من نفسه أين هو ؟ والله تعالى يقول : (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) .

وأفضل هذه المراتب هي مرتبة الجمع بين ذكر الله باللسان مع الحضور القلبي التام كما تدل عليه كثرة النصوص التي أوردناها وغيرها .

وحسبك ما ورد في خصوص أذكار معينة من عظيم الثواب ورفيع الدرجات كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحداً عمل أكثر من ذلك) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله) .

وفي الحديث الذي ختم به البخاري جامعه الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) وعن أبي هريرة رضي الله عنه من رواية مسلم والترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) .

وفي حديث سعد بن مالك رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : (يسبح الله مائة تسبيحة ، فيكتب الله له ألف حسنة ويحط عنه ألف خطيئة) .

أطوار التصوف في الإسلام

أكثر الناس قديماً وحديثاً الحديث عن «التصوف» وحاول الباحثون من القدامى والمحدثين أن يتعرفوا على حقيقة هذا اللفظ في أوضاع اللغة - ومقاييسها الإصطلاحية . فلم تسعفهم أصولها الوضعية وقواعدها القياسية ، وتفريعاتها الاشتقاقية بأصل يمكن الاعتماد عليه في صحة نسب هذا اللفظ إلى أبوابها .

وفي ذلك يقول الإمام أبو القاسم القشيري في رسالته : (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل «صوفي» ، وللجماعة (صوفية) ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له «متصوف» ، وللجماعة «متصوفة» ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والا ظهر فيه أنه كاللقب .

فأما قول من قال : إنه من «الصوف» ، وتصوف إذا لبس الصوف .

كما يقول : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي .

ومن قال : أنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .

ويقول من قال : أنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق اهـ .

ونحن نميل إلى أنه لقب منقول تعريباً من لغة غير عربية ، فهو حادث مع حدوث الألفاظ الدخيلة التي وفدت على العربية مع الأفكار والمعاني والمذاهب والآراء في القرن الثاني من الهجرة ، لم يعرف معرفة لقبية لطائفة من الناس بعينها قبل ذلك في تاريخ الإسلام ، وقد يكون عرض له شيء من التصرف اللساني لصقله تخفيفاً كما عرض لكثير من الألفاظ الوافدة .

ويقول الإمام أبو القاسم القشيري : إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية « علم » سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا فضيله فوقها ، فقليل لهم : الصحابة ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم من له عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع

وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً ، فانفرد
خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن
طوارق الغفلة باسم «التصوف» ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكارب قبل
المائتين من الهجرة . انتهى كلام القشيري .

ونحن لا نستبعد أن يكون للأحداث السياسية - التي بدأت أحداثها في
العصر الأول من خلافة الراشدين وطمت دواهيها بعد ذلك ولم تطفأ
نيرانها ، وكذلك الأحداث الاجتماعية التي حولت المجتمع الإسلامي عن
وجهته الأولى في الجرى مع طبيعة الدعوة الإسلامية على منهاج الفطرة -
الإنسانية بعيدة عن التفلسف والتعقيدات الفكرية - أثر كبير في تلقيب
الفرق وتسمياتها ، واختصاص طائفة معينة من المسلمين بهذه التسمية
«التصوف» .

وقد كانت السمة الغالبة على هذه الطائفة التي تميزت بها على غيرها
من الطوائف في عنوانها الظاهر هي «الحزن» لشعورها بظلم فادح ،
واضطهاد جارح ، ومطاردة قاهرة ، فزهدت في رغائب الدنيا وزخارفها ،
وسائر مظاهرها واعتزلت الحياة واستوحشت من محافلها وأنست إلى
محارب الخلوات متعبدة زاهدة ، متقشفة أشد التقشف فراراً إلى الله
تعالى بدينها عن دنيا الناس .

وإذا صح هذا - وهو عندنا صحيح - كانت بقية السلف من آل البيت
النبوي وأنصارهم ومحبيهم من ذوى الألباب الراسخين في العلم والأدب الشرعي
من أهل الصفاء والاخلاص والطهر والتقى هم الطليعة لهؤلاء الزهاد
العباد ، وتبعهم في سمتهم من كان صغوه إلى طريقتهم في الزهد والعبادة ،
تم انشعبت هذه الطليعة إلى شعب متعددة ، واقتربت فرقا مختلفة ، اتسمت
كل فرقة منها بسمة نزع بها إلى وصف خاص يميز ، به تسمت وبلقبه عرفت ،

يعمها كلها التقشف والزهادة في ترف الدنيا ، وبقى اسم «التصوف» لخيرهم طائفة ، وأمثلهم فرقة ، وهم الذين أقاموا على عمود الاسلام ، متمسكين بظواهر شرائعه عاملين ببواطن حكمها وأسرارها ، وعنوانهم الأكبر الاخلاص في العبودية وحب آل البيت حباً لا يخرج بهم عن جادة الحق والهدى . وكانوا بذلك هم خلاصة الفرقة الناجية الذين عرفوا في تاريخ الاسلام بأهل السنة .

وقد كان أوائل الفرق الاسلامية قبل التشعبات المتكثرة بإغراء السياسة من هذه الطليعة الزاهدة المتعبدة ، ففي المعتزلة الأوائل عمرو بن عبيد . يصفه إمام الزهاد الناسك ابن السماك فيقول «كان عمرو بن عبيد إذا رأته مقبلاً توهمته جاء من دفن والديه ، وإذا رأته جالساً توهمته جلس للقود ، وإذا رأته متكاملاً توهمته أن الجنة والنار لم يخلقها إلا له .»

وسئل عنه الحسن البصرى - كما يقول ابن خلدون - فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكان الأنبياء ربه ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبهه بباطن منه ولا باطناً أشبهه بظاهر منه .

وكان عمرو بن عبيد صديقاً لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي قبل أن يلي الخلافة فلما ولها طلب إليه أن يعينه بأصحابه ، فقال له عمرو : ارفع علم الحق يتبعك أهله . وكان المنصور ينظر إليه وهو خارج من عنده ، وقد عرض عليه الدنيا فرفضها فيقول :

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

(• - التصوف)

وكان من زهاد الخوارج أبو حمزة الشاري ، وهو نسيج وحده في الزهد والتعبد وقهر النفس . ومن كلامه في وصف أصحابه ما يرويه ابن عبد ربه في العقد الفريد ، فيقول : خطب أبو حمزة الشاري بمكة فصعد المنبر متوكئاً على قوس عربية ثم قال : يا أهل مكة تعيرونني بأصحابي ، تزعمون أنهم شباب وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباب ، نعم الشباب مكتهلون ، عمية عن الشر أعينهم بطيئة عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم في آناه الليل متثنية أصلاهم بمثاني القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه ، قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، أنضاء عبادة ، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام الخ ..

فلما غمرت السياسة المجتمع الاسلامي وساقته بعصاها انزلت الفرق إلى مزلق الدنيا ، ولم يبق على عهد الزهادة بصفة عامة ، سوى عباد أهل السنة وشيعة آل البيت المعتدلين ، وسوى الخوارج بمن فارق الطليعة في بعض الأصول أو الفروع .

فأما الخوارج فقد لزمهم اسم الخروج من الطليعة وإن كانوا طليعتهم زهداً وتعبداً وتجاافياً عن الدنيا ، لأنهم جهلوا سنة الله في شرائعه ، ففروا بدينهم من الله جهالة على الله ، وتعالياً بالزهد والتعبد ، وقد أنبأنا بخبرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رائدهم . وقائد ضلالتهم ذى الشدية الذى جهل على نبوة الرسالة الخالدة الخاتمة غروراً بتعمق التعبد كأنما يتاجر الله مدياناً بعبادته ، فيدل بها ادلال الجفافة المغرورين بالله . المارقين من الدين من باب «خضراء الدمن» مروق السهم من الرمية . وهم لا يشعرون .

أما المعتزلة فيما بعد أوائلهم من تلاميذ الحسن البصرى فقد عانقوا السياسة وخاضوا غمرات الدنيا وتبوؤوا في القصور المترفة مكانة أبعدهم عن الزهد والورع واستعبدهم لمنطق العقل الجاف المعقد ، فكانوا في الإسلام كما عرفهم التاريخ .

ولما توافدت مواكب الأمم بميراثها من العقائد والآراء الناشئة في وثنيات الماضي السحيق على ساحة الإسلام بعد ذبوع الدعوة الإسلامية لتدخل فيه طائفة راغبة ، أو كارهة كائنة وجدت هذه المواكب الدخيلة نفسها بين المجتمع الاسلامى فى لجنة من البشر تموج بأجناس الإنسانية وعقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وهى تتدافع وتتزاحم وتتوالب ، يسوقها - أحياناً - ميراث العقائد المترسب فى حنايا مشاعرها ، وتسوقها - فى أحيان أخرى - السياسة الظالمة إلى مطامعها متسترة بجلباب الدين .

وإذا بالضعفاء أهل المسكنة والسكون إلى الله يدفعون بالمناكب إلى الوراثة لا يستطيعون دفاعاً ولا مواكبة وينظرون حولهم فاذا بأخوة لهم عاكفون على أحلاس الأحزان ، يرمضهم حال الأمة وهى تهوى مع السياسة المترفة ومع ميراث الأباطيل فى العقائد الوثنية ، فلا يملكون إلا الانطواء على أنفسهم يتنفسون زفيراً ، قنعوا من الدنيا بالكفاف أو بما هو دون الكفاف . وفرغوا أنفسهم أو فرغتهم الحياة لأنفسهم فاستراحوا وأراحوا . لأنهم وزنوا الدنيا التى فرت منهم أو فروا منها بميزان الحق ، فأوها كظل شجرة لا يزال يتنقل ثم يمضى ، فعرفوا أن طالب الدنيا فاقدها ، فأعرضوا عنها بقلوبهم أعراض العليم بحقيقتها الذى يراها مع أهلها كصيد الفئران المزودة بطعم شهى ، إن أدركت الدنيا أحداً منهم أو أدركها أحد منهم أعرض عنها ، فإن تعلقت به أخذها فقال بها هكذا وهكذا فى سبيل الخير ، يسعد بها المحرومين ، ويرحم بها المساكين ، وإن لم تدركه ولا هو أدركها فى سيره إلى الله ثم ينبع نفسه تأسفاً على فواتها ، بل لا يمد إليها نظره ليعرف أين مراحها ومغداها .

أو لئلك هم الصالحون أهل الصفاء والاخلاص والتقى . أنسوا بالله فأفاض عليهم من بحار لطفه واردات الاشراق ، وانفتحت لهم من ينابيع العبودية عيون المعرفة فكانوا شهوداً لجلال الله وكبريائه ، وهم عن دنيا الناس والأشياء غائبون .

يقول أبو سعيد الخراز في كتابه «الصدق» : الزاهد في الدنيا حقاً لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت . ويقول النوري : نعت الصوفي السكون عند العدم والإيثار عند الوجود .

أما الذين تزهدوا عجزاً عن التزام على الدنيا ، وتعبدوا يأساً من نيلها فأولئك الذين بختهم الدنيا لأنهم وزنوها بميزان عجزهم ، ففنعوا بزهادة اليأس ، وتعبد العجز ، وفرغوا أنفسهم عن تطلابها فأراحوا ولم يستريحوا وشغلت قلوبهم بوردات كلمع البرق في أديم السراب ، لا تستقر ولا تنحسر ، نخلط عليهم النور بالظلام كعبث مرده - الشياطين في أودية الخراب ، لا يدرون مامعهم من شيء إن كان معهم من الأشياء شيء ولا يزالون يسبحون في بحار السراب حتى تتخطفهم شياطين الأباطيل ، وتقذف بهم في أودية الضلال فهم مرة حلوليون ، وأخرى اتحاديون ، وثالثة اباحيون ، يعبدون ما ينحتون بأصابع الأضاليل ، ويدعون ما يتمثلون بأخيلة الممرورين ، وينطقون بما يخيلون من شطحات المبرسمين .

والزهد الصادق في الدنيا بعزوف القلب عنها مع القيام بحق شرائع الله تعالى مخلصاً له الدين هو الميزان الصادق في شرعة الإسلام لوزن والتصوف العملي ، الصادق ، بل هو كل ما كان معروفاً في صدر الإسلام من عمل زوى تحت ما سمي فيما بعد (تصوفاً) صادقاً ، وهو ما كان يعرف بالأخلاق الإسلامية أو بالمعرفة لأن العارف بالله لا يشغله عن الله شيء لا طلب الدنيا ولا - الهرب منها ، يقول يوسف بن علي في رواية السلمي^(١) : لا يكون

(١) الرسالة القشيرية .

العارف عارفاً حقاً حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين .

ويقول أبو عمر الأنطاكي سمعت رجلاً يقول للجنيد : من أهل المعرفة أقوام يقولون : أن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : أن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإلى الله تعالى رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرذرة (١) .

والأصل في ذلك حديث حارثة . وهو مروى من طريق حسن قال النبي صلى الله عليه وسلم لحارثة : (كيف أصبحت يا حارثة) ؟

قال : مؤمناً حقاً يا رسول الله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (وما حقيقة إيمانك ؟) .

قال : عزفت نفسي عن الدنيا فأظلمات نهاري وأسهرت ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاونون فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (مؤمن حقاً نور الله قلبه ، عرفت فالزم) .

ويقول أبو سعيد الخراز في كتاب «الصدق» : وأعلى درجات الذين زهدوا في الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى في محبته ، وكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ذم الدنيا ووضع من قدرها ولم يرضها داراً لأولياتها ، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم

(١) الرسالة الفشيرية .

راكنين الى شىء ذمه ولم يرضه وجعلوا ذلك على انفسهم فرضاً لم يبتغوا
عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله في محبته كرمياً ، والله
لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ويروى أبو سعيد في معنى حديث حارثة عن عمر بن عبد العزيز أنه
نظر إلى شاب مصفر الوجه ، فقال : ما هذا الصفار يا غلام ؟ قال : اسقام
وأمرض ! قال عمر : لتخبرني !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها
وحجرها وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون . وأهل النار
في النار يتعاوون .

فقال له عمر بن عبد العزيز : أنى لك هذا يا غلام ؟

قال الغلام : اتق الله يُفرغ عليك العلم إفراغاً .

وقد أورد أبو سعيد رضى الله عنه في كتابه اشكالا يورده أهل
البطالة والركون إلى الدنيا والاستغراق في حيا وجمعها ، وأجاب أحسن
أجاب عنه وتلخيص ما قاله : فكيف ملك الأنبياء عليهم السلام الأموال
والضياع . . والصالحون من بعدهم ؟ ؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير .

اعلم أن الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله
عنهم أمناء الله تعالى في أرضه على سره ، وعلى أمره ونهيه ، وفهموا لماذا
خلقهم . . فوافقوه في محبته . . ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء
القابلين عن الله والحافظين لوصيته . . فسمعوا الله تعالى يقول : (آمنوا
بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) . . وقال : (لله ما فى

السموات وما في الأرض) فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما حولهم وملكتهم فإنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى . . .

فمن ملك من أهل العلم عن الله تعالى وأهل الصدق شيئاً من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله عز وجل لا له ، إلا من طريق حق ما حوله الله تعالى وهو ممبلى به حتى يقوم بالحق فيه . . .

فالقوم كانوا خارجين من ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده أن فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه . . . وهذا النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه ملك من السماء لم ينزل قط قبل ذلك فيقول له : هذه مفاتيح خزائن الأرض تسير معك ذهباً وفضة . . . فلم يختار ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال أجوع مرة وأشبع مرة .

وهذا أبو بكر - حين حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة - جاء بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ما خلفت لعيالك ؟) قال : الله ورسوله ، ولي عند الله مزيد ، ثم جاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالي ، وقره عندي مزيد أهـ ملخصاً .

قلت : فانظر إلى قول الصديق الأكبر وهو في مقام الجمع بين الفناء عن نفسه وماله ، والبقاء بالنسبة لصدق رجائه في الله تعالى الممثل في قوله رضي الله عنه : (ولي عند الله مزيد) فهو مشغول بالله غني بما عند الله ، ثم انظر إلى قول الفاروق وهو في مقام الصدق مع الله : (والله عندي مزيد) والفرق بين الشيخين هو فرق ما بين المقامين في الكلمتين .

ثم قال أبو سعيد : ثم عثمان يجهز جيش العُسُرة كله بجميع ما يحتاج إليه ويحفر بئر رومه .

أفلا ترى أن القوم إنما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟؟ . . . وهذا أبو بكر رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلمها لم يرفع بها رأساً . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلمها كان طعامه الخبز والزيت ، وكان في ثوبه بضع عشرة رقعة بعضها من ادم وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر ، وهذا عثمان رضى الله عنه كان كأنه واحد من عبيده في اللباس والزي ، ولقد روى عنه أنه روى خارجاً من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : أردت أن أنظر نفسي هل تأبى ؟

وهذا علي بن أبي طالب رضى الله عنه في الخلافة قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان في كفه طول فتقدم إلى خراز فأخذ السكين فقطع اليكم من عند أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمناً ويسرة .

وهذا الزبير رضى الله عنه يخلف حين مات من الدين مائتي ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل ، وهذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يعطى حلى أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله تعالى حين أمرهم (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

* * *

هذا التصوير الذى صورنا به الجو العام فى سيرة المسلمين الأوائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من زهاد الصدر الأول

ومتعبد بهم من العزوف عن الدنيا ، والصدق مع الله في معرفة جلال
كبريائه ، والقيام بحق شكره بالتعبد له في سائر حركاتهم وسكناتهم على قدم
الإخلاص ، والذي صورنا به زهادة البائسين وتعبد العاجزين عن المنافسة
على الدنيا وتسلبت شياطين الأهواء على عقولهم وافئدتهم حتى أخرجتهم
إلى وثنيات مظلمة زعموها فتوحات مشرقة هو - في نظرنا - واقع
ما يصح أن يطلق عليه اسم «التصوف» في تاريخ الإسلام لأن اللون الأول
منه وهو لون الزهادة الصادقة والتعبد الخالص ، واليقين المصفي من حظوظ
النفس هو الذي يعرفه دين الإسلام وتعرفه شرائعه ، أما اللون الثاني وهو
لون الزهادة اليائسة والتعبد القائم فهو اللون الوافد من خارج الإسلام مع
العقائد الوثنية التي حملتها طوائف الزاحفين إلى ساحة الإسلام بقلوب
مليئة بالأباطيل . وهذا كله لا تعرفه طبيعة الإسلام ، ولا تقره ولا ترضاه
مهما تأول المتأولون .

فالتصوف في الإسلام - على غرابة هذا اللفظ عن الإسلام
واللغة العربية - كان عملاً محضاً ، يقوم على إخلاص التعبد لله تعالى في كل
أمر من أمور الدين والدنيا ، وهذه الدنيا عندهم دين ، لأنهم يأتون ما يأتون
منها وقلوبهم وجملة أنهم إلى ربهم راجعون ، لا يسارعون إلا إلى الخيرات
وهم لها سابقون .

ويقوم على الشفقة على خلق الله والرحمة لهم ، يسمعون من رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن امرأة بغيا رحمت كلباً وجدته يلهث من شدة العطش ،
فشقت نخارها لترفع له الماء من البئر فسقته فاطلع الله عليها فغفر لها ،
ويسمعون منه صلى الله عليه وسلم أن امرأة دخلت النار في هرة ، حبستها
فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض .

ويرويه صلى الله عليه وسلم يحلم على أعرابي جاءه يسأله شيئاً من متاع

الدنيا فيغلظ الاعرابي القول للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيهم بعض الصحابة ليطش به ، وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم ينهته صاحبه ذا العزيمة الباطشة ثم يقوم صلى الله عليه وسلم إلى بيته ويزيد في الاحسان إلى الاعرابي حتى يبدل غلظته لينا ولطفا ، وجفوته سماحة ودعة ، ثم يقول له : أرضيت ؟ فيقول الاعرابي : نعم رضيت ، فجزاك الله من أخ وعشيرة خيراً ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي عليك شيء ، فاخرج اليهم : وقل أمامهم ما تقول ، ويخرج الاعرابي راضياً ، ويعرف هذا الرضا في وجهه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسكن نفوسهم ، ويرشدتهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثمره التربية العملية للنفوس البشرية فيقول لهم : لو تركتكم وما كنتم تريدون به لدخل النار .

فهذا درس عملي ، قل فيه الكلام وكثر فيه العمل ، وكان حديث القلوب فيها أبلغ من براعة الألسنة ، حيث ملأها رحمة وسماحة وغرس فيها حب الجود والبذل وزينها بالحلم ، وجمع لها مكارم الأخلاق .

درس يجعل النفس الانسانية مرآة صادقة لتلقى صور الخير والبر والشفقة على عباد الله ، لأنهم عباد الله .

درس يتعلم منه حاضروه في مدرسة النبوة والذين يسمعونه بأذان قلوبهم ممن يقتفي آثارهم كيف يقوى المؤمن على دوافع بشريته ، ويرتفع فوق مستوى دواعي غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطوات والهواجس وفلتات الكلمات ، فضلا عن كبير الأعمال ، وعظيم الأقوال ؛ وذلك أن محاسبة النفس هي الدعامة الأولى في بناء الاخلاص ، والاخلاص لباب العبودية ، والعبودية هي الباب إلى حضرة القدس والشهود ، يقول أبو سعيد الحسن البصرى : ان المؤمن توام على نفسه يحاسبها لله عز وجل .

ومن دقيق المحاسبة للنفس فيما يبدو امرأ صغيراً عند الذين لا يلاحظون
أنفاسهم لله تعالى ، وكبيراً عظيماً عند من أدبوا بالتقى وذل العبودية ما رواه
المحاسبى فى «الرعاية» من طريق أبى داود الطيالسى عن عبد العزيز الماجشون
عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أبا بكر رضى الله عنه
قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ثم قال لها :
كيف قلت ؟ قالت : قلت : ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ، فقال :
لا ؛ ما أحد من الناس أعز على من عمر . قال المحاسبى : فتدبر كلمة قالها ،
ثم أبدلها بكلمة غيرها .

وبهذه المحاسبة للنفس يكون وقوفها أبدأ على قدم الإخلاص لله فى
العبودية فتطهر من أردان الرذائل الحيوانية ، وتصفو من كدرات الظلمات
المادية ، وتتحرر من رق الشهوات والرغائب ، وتخلص من قيود الأنانية
منطلقة فى بقائها الإنسانى الكامل إلى آفاق الإشراق الروحى ، وتخضع
لها جوارح الجسم طواعية منسجمة مع توجهات القلب بكليته إلى الله تعالى
انسجاماً يستوى فيه ظاهر الإنسان وباطنه فى سائر حركاته ، فيحبه الله
حباً يسخره به لمرضاته ، فلا يراه إلا حيث يحب ويرضى ، ويحب العبد
الله حباً لا يرى معه فى الوجود غيره ، وإذا أحب الله تعالى عبداً كان له
سماً يسمع به وبصره يبصر به ، ويداً يبطش بها ، وذلك نهاية ما يطلبه
العارفون . وهو الذى يدندن حوله العابدون السائحون ، وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء .

أوائك هم الأدلاء على الله لا يرجون أحداً فى معصية الله ولا يقنطون
أحداً من رحمته يرضون أبدأ بالصبر على البأساء والضراء ، ويسلمون
بالقضاء . ويشكرون على النعماء ؛ يحبون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم أياديه
واحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة الى الله تعالى ، علماً بعظمة الله تعالى
وعظيم قدرته وعلماً بكتابه وسنته ، ففهاء فى دينه علماء بما يجب ويكره .

ورعين في البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال
والمرام ، متباعدين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسنين
لأنفسهم . ما لكين لجوارحهم ورعين في مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم
مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتازين بالبلغة من الأقوات ، متقللين
من المباح ؛ زاهدين في الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين .
من المعاد مشغولين بهم ، مؤثرين على أنفسهم ، لكل امرئ منهم
شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأهليل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم
العقاب .

ذلك أورثهم ، الحزن الدائم ، والههم المضني ، فشغلوا عن سرور
الدنيا ونعيمها (١) .

على هذا الصراط المستقيم كان أئمة الهدى من أعلام مدرسة النبوة
المحمدية واتباعهم الذين لم تشوش البدع الضالة عقائدهم ، ولم تدنس
الأهواء والشهوات أعمالهم .

مضوا طاهرين مطهرين على السمات الأقوم ، والنهج الأعدل الأحكم
لم تلمهم الدنيا عن سبيل العبودية لله ، مخلصين له الدين ، ولم يميلوا
معها اغتراراً بزخارفها ، تركوها بشهواتها ولذائذها بجسومهم وأرواحهم
في غير رضا الله ، واقبلوا عليها بجدها وشظفها بقلوبهم وعقولهم في رضا
الله ، واتخذوها مطيتهم إلى ساحة الاقبال على الله ، عقلوا عن الله بفضله
وأمره ، وفقهوا بتوفيقه نواهيته . جعلوا الأمر والنهي سياج أعمالهم ،
بهما يتحركون ويسكنون . لا يراهم الله حيث نهام ، ولا يفقدهم حيث
أمرهم ، علماء بالله يخوضون بحار العلوم والمعرفة تفقها في دين الله ،

(١) من كلام الحارث المحاسبي .

واستطلاعاً لجلال الله في صنائعه . يجاهدون أعداء الله ليردوهم إلى حظيرة
حبه ، شفقة عليهم من سخط الله وغضبه ، ورحمة بهم أن ينالهم أليم عقابه
يسكنون تحت وطأة الأقدار رضا بقضاء الله . يقومون في حركاتهم بنعمة
الله ، ويقعدون في خلواتهم لذكر الله . قلوبهم معلقة بوشائج الرجاء في
رحمة الله ، والخشية من مكر الله ، يخافون ربهم من فوقهم ، فلا تطمئن
أنفسهم إلى عمل من الأعمال ، يظمتون نهارهم ويسهرون ليلهم ، توايبن
أوابين . قوامين بالقسط ، شهداء لله على أنفسهم بالقصور والتقصير في
جنب الله ، يسمعون كلام الله وهم يبكون شوقاً إلى ما طالعوا من غيب الله
فما أعده من جزاء الرضا والرضوان لأحبابه وأوليائه ، وترتعد فرائصهم
فرقاً من سخط الله ، تفيض أعينهم بالدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون في
سبيل الله ، عكوف في مجالسهم على محبة الله ، مُصفرة وجوههم . نخيلة
أجسامهم ، يابسة جلودهم ، يراهم الجاهل بالله عن غفلة منهم فيظنهم في
سياق الموت من خشية الله ، لا يطفى نور يقينهم نور علمهم مرهفة أسماعهم
إلى نداء الحق فاذا سمعوه انتفضوا كأنهم أرواح منطلقة من سجنها ، يحسبهم
الغافل عن حقيقتهم إذا رأهم في انتفاضتهم جنة تتوالت في ملاعبها ، إذا
استنفروا جهاداً لإعلاء كلمة الحق ، نفروا باذلين أنفسهم لله كأنهم أسد
الشرى تدفع عن عُرنها وتذود عن أشبالها ، أشجع الناس في دين الله قلباً
وأسخاهم لله نفساً . فرحين بنسبهم ، يقتلون أعداء الله ويقتلون في
سبيل الله إيقاناً بوعد الله مستبشرين بما وفوا بعهدهم ، تدور وجوههم
إشراقاً إذا استشهدوا في حب الله كالقمر في تمامه ، يشرق في سماء صافية
الآديم ، يقينهم محصن بالعلم ، وعلمهم معتمد على اليقين ، إيمانهم شهود ،
ومنتهى معرفتهم بالله هو عجزهم عن الوصول إلى حقيقة وراء آيات الله ،
يقول الصديق الأكبر في تصوير نهاية العارفين (العجز عن درك الإدراك

إدراك) انتزاعاً من فيض إشراق النبوة في أدب العبودية (لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) .

وتفسير هذا : أن أرقى مقامات القرب هو مقام العبودية ، وهو خصيصة الأنبياء في إضافة التخصيص جملة لسائر الأنبياء - وتفصيلاً مميزاً لأولى العزم من الرسل ، ومنتهى مقام العبودية هو حجاب الأدب الذي لا يهتك ستره بالتطلع إلى سبحات الجلال إلا مطرود محروم .

وبهذا الأدب الأشم الأعظم أثنى الله تعالى على حبيبه سيد الأنبياء وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فوق الثناء عليه بتخصيصه بإضافة العبودية بعد الثناء على نفسه بتسبيح ذاته وتقديس صفاته في قوله (سبحان الذي أسرى بعبده) كان ذلك الثناء الأشم في مقام (قاب قوسين أو أدنى) بقوله عز شأنه (ما زاغ البصر وما طغى) .

ومن ثم كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه هو الصديق الأكبر ، والتلميذ الأول لإمام المقربين وسيد العابدين ، لأن الله تعالى جمع له ما تفرق من معاني العبودية وأسرار القرب في سير العارفين العابدين المقربين من خاصة المؤمنين ، فهو المثل الأعلى لهم في حياته وأعماله ، وسره وإعلانه ، كما جمع الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما تفرق من نعوت العبودية الخاصة في جميع الأنبياء والمرسلين .

ويتفاوت حظ العابدين في أدب العبودية ومراتبها بتفاوت درجات القرب من منبع الفيض في العلم بالله تعالى ، ولما كان أبو بكر رضى الله عنه أقربهم إلى سيدهم صلى الله عليه وسلم كان حظّه منها الغاية التي يقف دون إدراكها كل عابد من خاصة المؤمنين .

وتأتى بعد ذلك درجات الصحابة أجمعين متتابعة تتابع مراتبهم من
من القرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ناله كل واحد منهم من نصيب
في العلم بالله تعالى ، وليس أحد منهم رضى الله عنهم إلا وله من ذلك حظ
يفوق حظ كل ولى لله جاء بعدهم لاختصاصهم بإشراق أرواحهم برشحات
أنوار النبوة ، وأعظمهم في نفحات القرب الراشدون على مراتبهم في الخلافة .
وهى أجل مراتب الولاية والعبودية .

ولهذا كانت سيرتهم في مجال حياتهم وسائر أعمالهم وكافة حركاتهم
وسكناتهم فيما يأتون ويذرون هى الميزان لوزن حقيقة «التصوف» الذى
يعرفه الإسلام - بحقيقته العملية التى تمثلت فى الزهد الواجد والورع الصادق ،
والتعبد الكامل ، والإخلاص الباعث على البر والإحسان لكافة الخلق ،
لأنهم عيال الله ، وأحبهم إليه أكثرهم نفعا لعباله .

وسيرة الصحابة رضى الله عنهم وخاصة الراشدين مدد من سيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم المعبر إلى إشراق أنواره على من أراد
العبور إلى منازل القرب ، والطرق كلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مسدودة إلا طريق أصحابه الناقلين إلى الناس سيرته بسمتهم وأعمالهم كما
أن الطرق كلها إلى الله تعالى مسدودة إلا طريق رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى سيرته وسمته وسائر أحواله وأفعاله وأقواله وشمائله .

فالتصرف الذى يعرفه الإسلام عمل تطبيقي فى واقع الحياة لسيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة خاصة أصحابه ، وقد أخذ عنهم
بحقيقته - لا باسمه وانفذه - العابدون من تلاميذهم أهل المعرفة والعلم
بالله ثم تلقاه ممثلا حية من العمل فى سيرة هؤلاء تلاميذهم الذين جاءوا من
بعدهم من أهل التقى واليقين ، وكان هؤلاء وأولئك على نهج أساتذتهم
ومربيهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون كثيرا ،

ولا يتكلمون إلا قليلاً ، فلم يعرفوا للتصوف علماً خاصاً يميزه عن علمهم
بالكتاب والسنة ، ولم يعرفوا له نظاماً خاصاً يميزه عن نظامهم في حياتهم
وسيرتهم التي عليها درجوا بين صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ولم يعرفوا له طائفة خاصة تمتاز بأوصاف لا توجد في كافة صالحى
المؤمنين ، يكره أحدهم أن يتكلم بالناس يتبعونه ، ويمشون خلفه خشية
العُجب على نفسه ، روى أن محمد بن سيرين كان إذا خرج إلى مكان
يقصده وأراد بعض أصحابه ومريديه أن يصحبه يقول له : إن لم يكن لك
حاجة فارجم .

ويكره أحدهم إلا يجتهد السعى في الحصول على قوته وقوت عياله بل في
الحصول على أكثر من ذلك صيانة لدينه وصلة لرحمه ، روى أن سعيد بن
المسيب كان يقول : لا خير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وجسمه ،
ويصل بها رحمه وكان رضى الله عنه يتجر في الزيت . ولا يقبل صلوات
الخلفاء والولاة .

ويكره أحدهم أن يتميز على سائر المسلمين في زيهِ وشكلهِ ومكانهِ
في مجلسهِ ، ويكره أحدهم أن يرى قعيد المساجد وغيره يسعى عليه يقوته
ويمونه لا يدري من أين جاءه بهذا القوت ، يقول إبراهيم بن أدهم : (أطب
مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار) وابن أدهم هذا كان
من أبناء الملوك . لاحظته عيون العناية الإلهية ، فخرج عن ملك الدنيا إلى
الله تعالى يطلبه في عز طاعته ، وكان يأكل من كسب يده ، يعمل للناس في
الحصاد ، ويضرب لهم اللبن من الطين ، ويحرس البساتين .

وكانوا يكرهون التماوت في الحركات تظاهراً بالتقى ، وإنما كانوا
يحيون حياة الناس ، بكل ما فيها من جد وقوة في صالح العمل ، يرى أحدهم

أن خدمة فرسه الذي أعده للجهاد في سبيل الله ومسح أعرافه من أجل أنواع العبادة وكانوا يرون السعي على أراذل المسلمين وخدمة يتاماهم وضعفائهم تحنثاً وتقي ، يأمررون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . يجهررون بكلمة الحق في وجه الظلمة . لا يباليون أكان الموت يسبقها إليهم أم هي تسبقه فتصدع قلوبهم ، لا يرون أبداً على باب أمير أو ذى سلطان ، فإذا اضطروا إلى شيء من ذلك نصحوا لله ورسوله ، يردون هداياهم ولا يقبلون شيئاً من أموالهم .

وكان فيهم الإمام العادل ، والخليفة الراشد والقائد الشجاع والعالم الرباني ، والصانع الماهر ، والتاجر الصدوق ، والزارع المحسن ؛ فهم في الأمة روحها الذي تحيا به ، وعقلها المدبر الذي تفكر به ، وقلبها النابض بالخير وشعورها الحساس ، يستسقي الغمام بدعائهم ، ويستجلب النصر على الأعداء بأسيافهم وبركاتهم ، يقلون عند المغنم تعقفاً ، ويكثرون عند سماع الهيعة نجدة وشجاعة ، نفوسهم راضية ، وأخلاقهم مرضية ، لا يحدثون الناس بما لا يفهمون ولا يفتنونهم بأقوال لا تبلغها عقولهم ، ولا تصل إليها مداركهم ، ينطقون بالحكمة ويدعون إلى الله بالموعظة الحسنة .

أولئك هم الرعيل الأول من صفوة المؤمنين في عهد صفاء الدين ، وطهارة اليقين ، عهد نقاء الشريعة من غلس الفلسفات الوافدة ، تحمل في طياتها العقائد النابتة في منابت الوثنيات المفلسفة محمولة على مراكب ذوى السلطان ، وركائب السياسة التي تبطنها طوائف الطامعين الطامحين . فخلطوا قضاياها بقضايا الدين ، وأحاطوا هذا الخليط المتنافر بمنطق دخيل براق (٦ - التصوف)

استهوى بعض العقول ، فركنت إلى مقاييسه ، تقيس بها أمور العلم والمعرفة
ومحصول الأفكار . محاولة أن تخضع لمعاييرها سنن الله في شرائعه التي
لا يستقل العقل الإنساني بمدرجاتها ، بل يعجز هذا العقل في بعضها عن
أصل إدراكها .

برء التصوف النظري وعوامل ظهوره

ومن هنا انشعب التفكير الإسلامي :

(أولاً) إلى تفكير عقلي افتتن بالعقل وعظمه جداً حتى كاد يؤلّفه ،
وسلبه مقادته ، وحكمه في النصوص المنزلة يتأولها إذا لم يطق فهمها
ووضعوا لذلك قاعدة ادخلوها على أصول الدين فأصبحت قاعدة من
قواعده فقالوا: إذا تعارض النص والعقل وجب اتباع العقل وتأويل النص .
ولا ندري كيف قبل مفكر و المسلمين من الأحرار أهل الديانة والمعرفة
بالله وشرائعه هذه القاعدة على إطلاقها ؟ ولماذا لم يضعوا في مقابلها : إذا
تعارض النص القطعي مع العقل وجب تعجيز العقل ؟ لأن النص القطعي
إلهي قد يعجز العقل عن إدراك حقيقته اليوم وتكشف له غداً ، والعقل
مهما بلغ من القوة فهو محدود للغاية في التفكير قاصر باعترافه عن إدراك
كثير من الحقائق التي يعترف بوجودها ولا يدري حقيقتها .

يمثل هذا الفريق من ذرى الفكرة العقلية جداً طوائف المعتزلة
والمتفلسفة ، فالعقل عند هؤلاء كأنه معصوم من الخطأ ، مطلق العنان
لا يقف عند حد في التفكير والحكم ، وهذا غلو مفرط كان له خطره
في مجالات الفكر الإسلامي ، ولا يزال هذا الخطر قائماً في أفكار المجددين
المعاصرين .

(ثانياً) إلى تفكير نهى يلتزم حرفية النصوص ، ولا يفسرها إلا بالفاظها ، ويمثل هذا الفريق بعض المحدثين والفقهاء ، وهؤلاء كأنهم قابلوا غلو العقليين بغلو مثله ، يقف منه على طرف الجانب الآخر ، فغمطوا العقل حقه ، لأن الله تعالى جعل العقل مناط التكليف ، فلا تكليف إلا بعقل والتكليف لا يتم إلا بفهم التكليف ولم يجعل الله تعالى للإنسان وسيلة لفهم شرائعه التي كلفها عباده سوى ما منحهم من عقل ، ووظيفة العقل معها إدراكها جملة في أصولها كلها وإدراكها تفصيلاً في الكثير من جزئياتها ، وقد يقف في إدراك القليل منها مسلماً لها ، أو متربصاً بالفتح بفهمها .

وهؤلاء يتفاوتون في استمساكهم بالنصية الحرفية ، فبعضهم يغالى جداً فلا يبيح لعقله أدنى حركة نحو فهم النص على غير ظاهره ، مهما كان هذا الظاهر ، ومن هؤلاء طوائف المشبهة والمجسمة وهم أغمار المفكرين ، وبعضهم يبيح لعقله أن يجوس خلال النصوص في أناة وحذر ، يتأول منها ما يخالف الأصول المتفق عليها والتي قد أوضحتها أصول أخرى جاءت فيها صريحة ، ومن هؤلاء بعض الحنابلة وسائر الظاهرية .

(ثالثاً) إلى تفكير لا يبغض العقل حقه من الإدراك ، ويطلق له العنان في دائرة استطاعته المحدودة ، فهو في نظر هؤلاء قاصر عن الاستقلال بإدراك كثير من أمور الدين الأصولية والفرعية ولاكنه قادر على فهمها إذا جاءت تكليفاً .

ويمثل هؤلاء متكلمو أهل السنة من الأشاعرة وبعض مفكري الفقهاء الذين اضطروا إلى مجابهة الفرق الأخرى من طوائف المعتزلة وغيرهم في محافل الجدل ليجادلوهم بأساليبهم وقوانين منطقهم ، حفاظاً على عقائد الأمة أن تشوشها شبه المتفلسفة وإن يفسدها اعتساف التأويل .

وحينئذ رأى أهل العلم بالله من زهاد الأمة وعبادها أن تيار الجدل
الفلسفي كاد يحرف الناس ويشغلهم عن إخلاص العمل لله تعالى ، فلا بد
من صيحة قوية منظمة ترد الشاردين عن حظائر المعرفة إلى ساحاتها وترشد
الحائزين إلى الجادة ، وتهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ، صراط الله
الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ورأوا أنهم لا يستطيعون القيام
بهذا الواجب الذي يحتمه داعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -
وهو من أعظم خصائصهم - إلا إذا خرجوا إلى الناس من محاربتهم .
يدعونهم إلى ربهم بأسلوب علمي منظم يجمع بين العلم والعمل ، وهذا
يتطلب منهم النظر في نصوص الكتاب والسنة ، نظرا يربط كل نص
بموضوعه ، ويضعه تحت عنوانه في باب تبيين الحكمة ، تقريبا للعقول
والقلوب بما يشبه صنيع الفرق المتجادلة في الزي والشكل ، وإن كان يخالفه
في الحقيقة والموضوع ، بعيدين عن ميادين الجدل والمرام .

لذلك أخذ فريق من أعلامهم يضع النصوص مواضعها من حقائقها ،
منبها على معانيها مشيرا إلى أسرارها ، مبينا طريق العمل بها ، شارحا آثارها
مستشهدا بمواقف السابقين من صالحى الأمة فى أشباهها ، تحجيبا للعمل فى
طاعة الله والإخلاص له واستمالة للقلوب ، لم يخرجوا فى كتاباتهم
ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع ، والإخلاص ، ومحاسبة النفس بأسلوب
بين محكم ، لا نجد لهم كلمة موهمة ، ولا عبارة محيرة ، يكسو كلامهم نور الحق
وضياء الهدى .

وكان من حملة هذا العلم المصنفى المنظم فى الكتب ، المضبوط فى
المؤلفات ، نقيا خالصا قرآنيا نبويا أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ،
وأبو سعيد الخراز ، وأبو طالب المسكى وإضرابهم من سلف زهاد
الأمة وعبادها ، وهم وإن اختلفوا روحانية ونفسا وصحة فى التأليف

وإيراد النصوص متفقون في الاتجاه والغاية ، ومتسلسلون في الحياة والزمن .

لم تتركهم الفرق المتشعبة من مذاهب المنطقيين العقليين ، والنصيين الحرفيين والفقهاء والمتكلمين بجميع مذاهبهم ، وسائر الفرق الأخرى المنحرفة عن أصول الدين ، يسرون في طريقهم داعين إلى الله تعالى مخلصين له الدين لا يمارون ولا يجادلون ، ولكنهم تناولواهم بأقلامهم وأسنتهم يناقشونهم وينقدون طريقاتهم ويعترضون أسلوبهم كأنهم فرقة من الفرق . وكأن سلوكهم مذهب من مذاهب الفكر الجدلي ، ولم يقصد أهل العلم بالله تعالى من الرعيل الأول بمؤلفاتهم إن يكونوا طائفة أو فرقة أو أصحاب مذهب من المذاهب ، يجادلون فيه ، ويناضلون عنه ، وإنما كان قصدهم الدعوة إلى الله ، وضبط أبواب العلم بالله ، والكشف عن حكم فرائضه وتعباداته ، وتجهيزها للناس ، أداء لحق الله في نصيحة عباده .

ولهذا لم تكن لهم مؤلفات في القرن الأول وكانت مؤلفاتهم نادرة جدا في القرن الثاني لا تخرج عن كلمات مجموعة من أقوالهم في مجالس تذكيرهم وحلقات وعظهم نقلها عنهم مریدوهم وتلاميذهم ، ولم تظهر لهم مؤلفات مقصودة الوضع على نهج المؤلفين إلا في القرن الثالث الهجري ، وهو العصر الذي احتدم فيه الجدل بين الفرق ووقعت فيه على أهل العلم بالله المحن الشداد فصبروا عليها وصابروها حتى كشف الله عنهم غمرتها وفي هذا العصر علا صوت الفلاسفة وأهل الاعتزال من مؤلحي العقل على سائر الفرق ، وفيه بدأ متكلمو أهل السنة من الذين يجمعون بين النقل والعقل يخوضون معهم بحار الجدل العميق بمنطقهم المتفلسف الذي يعسر على عامة الأمة من أوساط العلماء فمن دونهم فهمه والاعتماد عليه في تصحيح العقائد والعمل بشرائع الله تعالى .

ويظهر أنه كان في طليعة من وطد لهم قواعد التأليف المنظم الشامل في علوم الزهد والورع والاخلاص وأقام لطريقتهم دعائمها، ووطأ لهم سبيله الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي وفي كتابه «الرعاية» ما يشهد بذلك فهو أول كتاب جامع لأبواب السلوك العملي في أسلوب علمي على نهج الزاهدين العباد من أهل العلم بالله وكان المحاسبي معاصراً للإمام أحمد بن حنبل، وكان عالماً بظاهر الشريعة وأصول الدين على قواعد المتكلمين وخبيراً حاذقاً بعلوم المعاملات والدلالة على الله وقد رد على المبتدعة فأنكر عليه الإمام أحمد فقال له الحارث: الرد على المبتدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكنك حكيت شهرتهم أولاً ثم أجبت عنها، فلم يؤمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم حقيقةه.

ولكن المحاسبي أتجه (بعد أن رأى أهل زمانه مضيعين لرعاية حقوق الله، وهو الأمر الذي تولى الله عليه أنبياءه وأحبابه، لأنهم رعوا عهداً وحفظوا وصيته) (١) إلى علوم المعاملات وحمل لواء الصوفية وكانوا في عصره قد نظموها عقدت في طائفة تدعو إلى الله بالعلم والعمل، فأنكر عليه وعليهم أيضاً الإمام أحمد بن حنبل فلما سمع منهم دون أن يشعروا استغفر الله من انكاره عليهم، قال الشعراني في الطبقات: قيل لأحمد ابن حنبل رضي الله عنه إن الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآي والحديث، فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر، فقال: نعم، فحضر معه ليلة إلى الصباح، ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً، قال الإمام أحمد: لأنني رأيتهم لما أذن بالمغرب تقدم فصلي بأصحابه، ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه، وهو يأكل، وهذا من السنة،

(١) الرعاية للمحاسبي.

فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس أصحابه بين يديه ، وقال : من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل ، فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليها بالآي والحديث ، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئاً يقرأ فبكوا وخشعوا وانتحبوا ثم سكت القارئ ، فدعا الحارث بدعوات خفاف ، ثم قام إلى الصلاة ، فلما أصبحوا اعترف أحمد رضي الله عنه بفضله ، وقال : كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا ، استغفر الله العظيم (١) .

وكان أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز رضي الله عنه أماماً من أئمة الزهد والورع ، أهل المعرفة والعلم بالله تعالى ، وهو معاصر للإمام المحاسبي فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجري وقد وضع أبو سعيد في بناء الصوفية المنظمة دعامة من دعائم التأليف في علم المعاملة والسلوك .

وكتابه (الطريق إلى الله . أو كتاب الصدق) على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية خلع الله عليه حلية القبول ونحسب أن قارئه لا يخرج من قراءته إلا على شيء من نور ربه ، وهذا من أثر الإخلاص في العلم ، وهو يدل بقرب شبه من « رعاية » المحاسبي رضي الله عنه على وحدة المسلك في صوغ الحقائق الصوفية ، مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أظهر دلالاتها ومعها أقوال الصحابة والتابعين كتطبيق وافعي للنصوص ، وهذه كانت سمة « التصوف » في عصر هذين الإمامين .

والحارث المحاسبي ، وأبو سعيد الخراز مثلاً من أصدق الأمثلة في عصرهما على الصوفية المنظمة العالية التي لم تفارق السمات الأقوم من الأدب الشرعي والقيام بحقوق الله تعالى على دعائم الشريعة المطهرة ، على الرغم من أن الصوفية « تطورت » واتخذت لنفسها في القرن الثالث الهجري كيانات

(١) الطبقات الكبرى للذهبي .

خاصا له معالمة التي تدل عليه ويعرف بها ، وأصبحت طائفة لها علومها
ورسومها وسلوكها .

يقول المحاسبي في كتابه (الوصايا) ثم انى وجدت باجتماع الأمة في
كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ،
والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده : والإخلاص لله تعالى بطاعته
والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم (١) .

ويقول أبو سعيد كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل .

وقد تكررت أمثال هذه الكلمات من أكابرهم في هذا القرن الحاشد بهم-
عما يدل على أنهم شعروا أن شيئا بدأ يطرأ على نزعات بعض أتباعهم ، يفتح
باب التقول عليهم بتخطي سياج الشريعة إلى أمور لا تقرها نصوصها فأراد
أمتهم دفع قالة السوء عن طائفتهم ، وبيان أن أمرهم مشيد بالكتاب والسنة ،
فكل ما يخالفهما فهو باطل ، لا اعتداد به عندهم ولو صدر عن يطير في الهواء
ويمشي على الماء ، ويطوى له المكان وينشر له الزمان ، يقول أبو يزيد
البسطامي : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء
فلا تغتروا به ، بل انظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود
وآداب الشريعة . وروى القشيري في الرسالة أن أبا يزيد قال لبعض أصحابه :
قم بنا ننظر هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مقصودا
مشهورا بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه
تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا رجل غير مأمون
على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا
على ما يدعيه ؟

(١) مقدمة الرعاية للاستاذين : عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور .

ويقول سرى السقطي: المتصوف اسم لثلاثة معان وهو الذي لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تجمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله .

ويقول أبو حمزة البغدادي : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله .

ويقول أبو القاسم القشيري في الرسالة بعد أن ترجم لعدد من متقدميهم في علوم المعاملات والزهد والورع ، وأكثر من ذكرهم من رجال القرن الثالث : (هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصرفين بسلوك طرق الرياضة والديانة ، مقيمين على متابعة السنة ، غير مخلين بشيء من آداب الديانة متفقيين على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتوناً ، هلك في نفسه وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله .

ومن العجيب أن بعض هؤلاء الأكابر أصحاب هذه التحذيرات الشرعية هم من الذين نقلت عنهم كلمات يصعب فهمها على مقتضى قواين الشريعة وأحكامها وأن أبا يزيد وهو صاحب ذلك الكلام المشرق بأنوار الشريعة المطهرة كان في طليعة من نقل عنه بعض الكلمات الجامحة التي يعسر تأويلها بوجه صحيح ، كما نقل من غيره ألفاظ خارجة عن نطاق أصول الشريعة .

ومخرج ذلك في الجملة - عندنا - أحد أمرين .

أولهما - أن ذلك مما حمله عليهم من لم يرج لله فيهم وقارا ، تشويها لسلوكهم وتعويجا لطريقهم حتى ينقطع عنها السالكون . وهذا يتأيد بما صح عنهم من القول الذي نقلنا طرفاً منه في تعظيم الشريعة والتزام حدودها ، والتصریح

بأن كل من خرج في قوله أو فعله عن هذه الحدود هالك مفتون ، كما يتأيد أيضاً بأفعالهم التي جعلوا سباجها تقوى الله والزهد في مظاهر الدنيا والورع في الحلال فضلاً عن الحرام ، والتزام الفرائض وكثرة نوافل الخير في آناء الليل وأطراف النهار ، وبعيد جداً أن يكون صاحب هذا السلوك متصنعاً للناس يظهر خلاف ما يبطن ، وهم من ذلك براء .

ثانيهما - أن القوم أهل رياضة ومجاهدة وتعبد ، ومناجاة في خلواتهم مع الإخلاص الكامل وفناء النفس عن رؤية عمل من أعمالها ، وأن مرد الأعمال عندهم إلى توفيق الله ، فهم متعرضون لنفحات الله في سائر أوقاتهم والله على عباده المتعرضين لنفحاته فيوضات من الإشراق الروحي تنزل على قلوب المخلصين ، فإذا فاجأهم لمعات الإشراق بقوة فيضها ضعفت تحت أشعتها المرسله من شمس التجليات الربانية ، قوة بشريتهم وأخذوا عن حقيقة التكليفية واندفعت ألسنتهم تعبر عن مشاهد الإشراق فعجزت العبارة عن الأداء فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة في مقياس الشريعة والعقل ، القاصرة في ميزان المشاهدة والمكاشفة .

فمعجز بشريتهم عن تحمل مبالغتات الإشراق هو الذي أدى إلى قصور العبارة عن أداء حقيقة المشاهدة وقصور العبارة عن ذلك الأداء هو الذي ألبسها جلباب الجموح عن جادة الأصول الشرعية .

ولعل هذا المعنى هو بيان ما يعتذر به عنهم المعتذرون عن أن ذلك صدر عنهم في حال سكرهم وغيبتهم عن شهود أنفسهم .

ولهذا لا توجد أمثال هذه الكلمات الجامحة عند أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لتمكينهم من منازل الشهود وصحوهم دائماً وقوة أرواحهم وصفاء بشريتهم . كما كسبوه بمشاهدة أنوار النبوة مباشرة كالصحابه أو بالواسطة القريبة كحال التابعين وكبار اتباعهم .

وهنا نلاحظ أن الذين نسبت إليهم تلك الحكامات الجامعة أكثرهم من سلالات كان لأصولها القربية أو البعيدة نسب واسع في العقائد الفلسفة ، كما نلاحظ أن العصر الذي عاشه من نسبت إليهم تلك الحكامات الجامعة كان عصر تفلسف في العقيدة الإسلامية من جانب أنصارها دفاعاً عنها ومن جانب خصومها إفساداً لها ، فهل كان لذلك التفلسف العقيدى في العصر الذي عاشوه أو إصالة النسب في السلالات الفلسفة أثر في ذلك ؟ هذا شيء يحتاج إلى بحث عميق واستقصاء بعيد المدى لم يسعفنا وقت هذا البحث بهما ، ونحن نميل إلى تبرئة الأكارب من أئمة الصوفية في عصرها الأول الذي استقامت فيه معالمها ، وتميزت فيه بخصائصها ، واحتفظت فيه بصفاتنا التي صورها المحاسبي والخراز في كتابيهما ، ونرى أن كل قول يخالف نصاً قطعياً في الشريعة نسب إلى أحدهم هو من باب القول ، والكذب عليهم .

هكذا مرت الصوفية والتصوف في المرحلة الأولى من الحياة في تاريخ الإسلام ، ففي القرن الأول نبتت بذرتها على أيدي الزهاد والعباد وأهل الورع والتقوى الذين أرمضت الفتن الداخلية في الأمة الإسلامية قلوبهم ، فاعتزلوها منطوين على أنفسهم ، يعبدون الله قياماً بحق ربوبيته مخلصين له الدين ، لا يريدون دنيا الناس ، ولا يزاحمونهم عليها .

ولما انفرط عقد القرن الأول ، ودخل القرن الثاني كانت الصوفية قد قامت على ساقها غضة الأهاب ، لم تستكمل كيانها ، وبدأ أهلها يتحدثون عن المراقبة والإحسان والإخلاص والتقوى ، ومحاسبة النفس ورعاية حقوق الله والصدق في معاملته ، وبدأ الناس يرون فيهم لوناً جديداً للعمل والجد حتى أصبح لهم في حياة المسلمين حديث يتحدث الناس به حين يشيرون إليهم كما أصبح لهم كلمات خاصة تتردد في مجالات معارفهم

وعلومهم ، عرفت بهم وعرفو بها ، ونهض جماعة من أهل علومهم ومعارفهم يقيدون أقوال أئمتهم ، ويرصدون كلماتهم إلى جانب آي القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضی الله عنهم ويجعلونها كالتفسير للقرآن والسنة على أنها من وارداتهم المستنبطة من صفاء باطنهم وقيامهم على العمل بالشريعة المطهرة على قدم المراقبة والإخلاص. وكانت أحاديثهم في التوحيد والإخلاص ومراقبه النفس .

ومن هنا نبع عندهم ما سموه بعلم الباطن ، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس إلا زبدة العمل بالشريعة ، وثمره المجاهدة في القيام بأوامر الله ، وبه يفسرون قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) والتقوى لا تتحقق إلا بالعلم وهو علم الشريعة فمن علم الشريعة وعمل بما علم عليه الله علوما كثيرة وأفاض عليه معارف لانهاية لها .

ويعتبر هذا الدور دور حضارة للصوفية والنصوف ، فيه شبت على أقدام التكوين الطائفي ، وفيه تجمعت لها خصائص هيئتها إلى أن تبرز في وجود الحياة الإسلامية طائفة ذات معارف وعلوم ، وذات منطق خاص له عندها أصوله وقواعده .

ولم يكبد ينصرم القرن الثاني حتى كانت الصوفية والمتصوفة طائفة من خلاصة المسلمين قائمة بذاتها بين الطوائف الإسلامية ، لها خصائصها ومعالمها التي يستدل بها عليها وميزاتها التي تعرف بها ، ولها أصولها ومعارفها ، ولها مصطلحاتها في تلك العلوم والمعارف ، ولها أئمتها وروادها ، ولها حلقاتها الدراسية ، ولها كتبها ومؤلفاتها ولها حياتها الخاصة التي تقوم على رياضة النفس وتهذيبها وتخليصها من عبودية الغرائز ، وتصنيفتها من كدورات الأهواء والرذائل ، ولها وراء ذلك مجاهداتها في عبادة الله وذكره ، وتذكير عباده بالائه ونعمه ، ليجذبوهم إلى حظائر قربه ومعرفته .

وفي هذه المرحلة كان أخص ما يتحدث فيه أئمتهم أسرار التوحيد ودلائل الربوبية ولم تخرج أحاديثهم قط عن السنن الأقوم المعتمد على الأصول الشرعية ، بيد أنها كانت تخرج إلى الناس بأسلوب على غير ما عهدته العلماء في الجدل المنطقي الذي كان يسود الحياة العلمية الإسلامية منذ القرن الثاني ، بل كان أسلوبهم أسلوباً منفرداً بخصائصه خلع الله عليه جلايب القبول ، والصولة على العقول ، يفهمه من أنس به ، وينتفع به من يسلم له ، روى أن الإمام أبا العباس ابن سريج اجتاز إلى حلقة الجنيد ، وكان يتكلم في التوحيد ، فسمع كلامه ، فسأله عنه ، فقال : لأدرى ما يقول ، ولكنني أجد لكلامه صولة ليست بصولة مبطل .

وفي القرن الرابع كانت الصوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية في حياة المسلمين ، استكملت جميع مقوماتها ، وأصبحت لها مدارسها الخاصة ، ومحافلها الحاشدة ومصطلحاتها العلمية وطرائقها في التفكير ، ومناهجها في التربية والسلوك .

وفي هذه الفترة من عنفوان القرن الرابع عاش محمد بن أبي الحسن المعروف بأبي طالب المكي صاحب كتاب « قوت القلوب » وهو الكتاب العظيم الجامع لعلوم المتصوفة وأحوالهم ومقاماتهم ، وهو دائرة معارف لهم ، ومصدر من أوسع مصادرهم . عرض فيه أبو طالب منهج الصوفية العلمي وأبان عن سلوكهم . ورسوخهم في المعارف الربانية . وطريقة فهمهم للنصوص الشرعية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حريصاً على أن يجعل من أقوال العلماء والأئمة في فهم هذه النصوص وسيلة لتقريب فهم الصوفية إلى الناس أو ليجعل فهم الصوفية في النصوص متمشياً مع آراء علماء الشريعة الذين سماهم أبو طالب علماء الظاهر وجعل علمهم علم الظاهر ، وعلم الصوفية علم الباطن وربط بين العلمين ربطاً جعل أحدهما

لا يستغنى عن الآخر مع تفضيل علم الباطن ورفع درجته على علم الظاهر فيقول : ولعمري أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه .

وهذا هو الامتياز الذي اتخذته المتصوفة خصيصة لهم بين علماء الإسلام وهو الذي يدندنون حوله ، وهو الذي فتح لمتأخريهم أبواب التوسع في معاني النصوص توسعاً يخرجها عن حقائقها الشرعية ، فاذا عورضوا بمدلولات الألفاظ وأوضاعها اللغوية والشرعية قالوا : هيئات هيئات هذه المدلولات والأوضاع اللغوية والشرعية هي من علم الظاهر الذي يكف به العامة ، وهناك وراء هذه المدلولات والأوضاع علم الباطن الذي هو ثمرة الفتح الناشئ عن المعرفة وصدق المعاملة مع الله سبحانه ، ويمتدلون بحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) .

وأبو طالب المكي وإن كان مسبوقةً بها الاتجاه الصوفي لكنه يعتبر أول من وضعه وضعاً علمياً يحتج له بالنصوص وأقوال الأئمة من علماء الشريعة . ولهذا كان كتابه (القوت) من أهم مصادر الصوفية المحافظين .

ونحن نسوق مثلاً ملاحظاً من كتابه على اتجاهه هذا ليتبين حظ هذا الإمام من تأسيس التصوف تأسيساً علمياً ، وهذا التأسيس العلمي مرحلة ثانية من مراحل التصوف ، وهي أهم وأعظم مراحلها ، وعليها بنى كل من جاء بعده ، وهي الطريقة التي تبطنها الإمام الغزالي في كتابه « الأحياء » ، مقارباً محافظاً على أصول الشريعة وفروعها .

قال أبو طالب في شرح قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) : قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله . أراد بذلك علم حال ، يعني علم حال العبد من مقامه الذي أقيم فيه ، بأن يعلم أحدكم حاله الذي

بينه وبين الله عز وجل في دنياه وآخرته خاصة ، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه في ذلك .

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه في كل ساعة من نهاره .

وقال بعض علماء الشام : إنما عني به طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكاييد العدو وخدعه وغروره . وما يصلح الأعمال ويفسدها ، فريضة كله من حيث كان الاخلاص في الأعمال فريضة .

وقال بعض البصريين في معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة . لأنها رسل الله إلى العبد ، ولأنها أول النية التي هي أول كل عمل ، وعنها تظهر الأفعال ، وعلى قدرها تضاعف الأعمال فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ليميز بذلك الأحكام وهذا عند هؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى . وعبدالواحد بن زيد وأتباعهم من النساك وقد كان أستاذهم الحسن البصرى يتكلم في ذلك ، وعنده علم القلوب .

وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة ، إذ قد أمر الله تعالى به وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء في حديث مفسر : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » ومال إلى هذا القول ابراهيم ابن أدهم ، ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد ، وحبیب بن حرب .

وقال غير هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن استعمل منه ، واقتضى منه مدة دون غيره من عوام المسلمين ، ولأنه جاء في لفظ الحديث : (تعلموا اليقين) فمعناه علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين ، وهو عن أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى .

وقال جنذب : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا
الايان ، ثم يعلمنا القرآن فزدنا ايماناً ، وسياتى زمان قوم يتعلمون
القرآن قبل الايمان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

وقال بعض السلف : إنما معناه طلب علم ما لم يسع جملة من علم
التوحيد ، وأصول الأمر والنهى والفرق بين الحلال والحرام إذ لا غاية
لسائر العلوم بعد ذلك .

وكلمها يقع عليه اسم علم من حيث هي معلومات ، ثم قد أجمعوا أن ليس
تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضاً ، وإنما فيه فضل أو ندى .

وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء ، والنكاح والطلاق
وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه من دخوله في ذلك طلب علمه لقول
عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يتجر في سوقنا هذا إلا من تفقه ، وإلا
أكل الربا ، شاء أم أبى ، وكما قيل تفقه ثم اتجر ، ومال إلى هذا سفيان الثوري ،
وأبو حنيفة وأصحابهما .

وقال آخرون . يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وإنما اختلفوا في
كيفية الطلب وماهية الإصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال
والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال :
من طريق التوفيق والأثر .

وقالت طائفة من هؤلاء : إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات
إذا سمعها العبد وابتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلاً عنها
على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين ، لا يقع في وهمه ولا يجيك في
صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث ، فإذا وقع في سمعه شيء من
ذلك ووقر في قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه
من باطله لم يحل أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلاً أو ينفى حقاً فافترض

عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره ،
فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقبلاً
على شبهة ويتبع الهوى ، أو يكون شاكاً في الدين فيعدل عن طريق
المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو
لا يعلم ، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم
أرنا الحق حقاً فنتبعه وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك مشتبهاً
علينا فنتبع الهوى . وهذا مذهب أبي ثور إبراهيم بن خالد السكبي ، وداود
بن علي ، والحسين الكرابيسي ، والحارث بن أسد المحاسبي ، ومن تابعهم
من المتكلمين .

قال أبو طالب رحمة الله بعد أن ساق ما تقدم : فهذه أقوال العلماء في
معنى هذا الخبر . حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ،
واحتججنا بكل قول ، فالألفاظ لنا . والمعنى لهم ، وهذا كاه حسن ومحتمل ،
وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بالفاظ فإنهم متقاربون في
المعنى إلا أهل الظاهر منهم ، فانهم حملوه على ما يعلمونه ، وأهل الباطن
تأولوه على علمهم ، ولعمري إن الظاهر والباطن علمان لا يستغني أحدهما
عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان . مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم
والقلب ، لا ينفك أحدهما عن صاحبه .

ثم قال أبو طالب : والذي عندنا في حقيقة معنى هذا الخبر - والله أعلم -
أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة ، يعني علم هذه الفرائض
الخمسة التي بنى عليها الإسلام من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ، ثم
أن العمل لا يصح إلا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضاً
حيث افترض العمل .

ثم ذهب يفصل القول في إدخال جميع الأقوال المعتبرة عند علماء الشرع من الفقهاء والمحدثين ، وعند علماء علم القلوب والخواطر واليقين من المتصوفة في عموم القول الذي اختاره ، وهذا حسن بيد أنه إخراج للحديث عن عموم المقصود بدلالة ما أورده أبو طالب من النصوص الخاصة في بعض العلوم ، وإدخال أصحابها لها تحت مفهوم العموم من الحديث .

ومن حق هذا البحث أن يفهم هذا الحديث الدائر على السنة العلماء ، الذي يعتبرونه سنداً قوياً في نصوص الإسلام على حبه للعلم والمعرفة ، وتقديرهما حق قدرهما وإعظامهما والحث عليهما . انه - كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على عمومته في سائر أنواع العلم والمعرفة ، والمخاطب به الأمة كلها . فلا يخرج عنه علم من العلوم . ولا باب من أبواب المعرفة . ولا ينبغي قصره على شيء منها دون غيره وفرض الكفاية باق على فرضيته بالنسبة لعموم الأمة ، وفرض الأعيان متوجه على الأفراد والذوات المكلفين في ضمن عموم خطاب الأمة .

وفي إيراد هذا الحديث بنصه الذي أورده به أبو طالب رحمه الله دقة حديثة ثنى للإمام أبي طالب ، حيث رواه مقطوعاً عما زاده فيه بعض المتأخرين ممن لم يتمرس على النظر في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمة (ومسألة) وهو بنصه الصحيح كما رواه الثقات ، وكما ذكره في القوت ، لا حاجة به إلى هذه الزيادة ، لأنه جرى على سنن النصوص العامة التي ترد بلفظ التذكير . ويراد بها ما يعم الرجال والنساء في التكليف باعتبار أن التكليف يصوي بين الرجال والنساء ولا يفرق بينهم ، والنساء شقائق الرجال في جميع الأحكام إلا ما خصه الدليل بالنص ، أو بطبيعة الخلقة الإلهية والتكوين الرباني .

فانظر إلى هذا الإمام العالم الصوفي « المتفقه الرباني كيف أدار الحديث في بيان معنى الحديث المشهور المتعالم بين العلماء ، وكيف عرض في تفسير معناه أقوال العلماء من الفقهاء والمتحدثين والمتكلمين والنسك المتعبدين أرباب علم القلوب ، بل كيف أدخل في معناه خطرات بعض المتصوفة وسبحاتهم البعيدة الاحتمال عن معنى الحديث ، وجعل تلك الخطرات معنى محتتملاً في جملة ما يحتمله الحديث في التفسير والمعنى ، وانظر إليه كيف استدل لكل قول بنصوص من الأحاديث وأقوال أكابر الصحابة رضوان الله عليهم التي وردت في تلك المعاني الخاصة بمحل ورودها ، حتى المعاني التي نحاً نحوها المتصوفة استدل لها بنصوص خاصة في معانيها ، وهذه النصوص الخاصة مشهورة عندهم متداولة بينهم ، ولكنها لا ترتفع إلى درجة حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) .

فأبو طالب المكي رحمه الله تعالى يريد من هذا الاتجاه العلمي في كتابه أن يفهم قارئوه من سائر الطوائف والمذاهب أن (المتصوفة) لا يذهبون في فهم النصوص فهماً لا تحتمله معانيها ، فهم وإن قالوا يعلم الباطن في تفسير النصوص فإنهم لا يخرجون بباطنهم عن مواخاة علم الظاهر .

وذلك هو ما قصدناه بقولنا : ان أبا طالب المكي أسس بكتابه « القوت » التصوف تأسيساً علمياً ابتدأت به المرحلة الثانية من مراحل « التصوف » .

جاء بعد أبي طالب المكي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري الإمام زين الإسلام أبو القاسم القشيري وكان من أئمة المسلمين في الفقه وأصوله ، وأصول الدين وطرائق المتكلمين ، وله في الحديث وروايته مكان لا يقتحم ، وفي التفسير مقام لا ينكر ، وفي الأدب وبراعة البيان كان آية من آيات الفصحى ، وكان في حدة الذكاء وقوة الحافظة مثلاً

مضروباً ، روى أنه اختلف إلى درس الأستاذ الإمام أبي إسحاق
الاسفرايينى ، وسمع دروسه فى جملة أيام ، فقال له الأستاذ : هذا العلم
لا يحصل بالسمع ، فأعاد على الإمام جميع ما سمعه منه فى سائر الأيام
التي حضرها مع الضبط وحسن التقرير ، فتعجب منه أبو إسحاق
وقال له : ما كنت أدري أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى دروسى ،
يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقى ، وأن أشكل عليك شىء
طالعتنى به .

وكان من حسن موافقات الأقدار الإلهية لأبى القاسم القشيرى أن
جمعه الله على الشيخ أبى على الدقاق ، وهو إمام وقته فى علم المعاملات
والخواطىر وكان لسان الصوفية الناطق بعلومها فى عصره ، حضر القشيرى
بجالسته وسمع منه ، فأعجبه ولازمه ورأى الدقاق نجابته فأرشده إلى الاشتغال
بالعلم ، فاشتغل به وحضر دروس الأئمة من إضراب أبى بكر الطوسى ،
وابن فورك والاسفرايينى وقرأ كتب الباقلانى حتى برع فى الفنون الشرعية
والعقيدية والعربية ، ولم ينقطع عن مجالس الدقاق الذى حذق عليه علم
القلوب ، وتمرس على إشارات الصوفية ولوامع خواطىرهم بعد طول
الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت أحوال الصوفية خلقاً له وفطرة مع تضلعه
فى سائر العلوم ، وقد ألفت فى كل فن كان فى عصره معروفاً فى العلوم
الشرعية والأدبية مؤلفات اشتهرت بين العلماء فى الشرق والغرب ، ومن
أشهرها تفسيره للقرآن الحكيم ، الذى يعد مرجعاً من المراجع الأصلية
لكافة المفسرين الذين جاءوا بعده .

ولما أحكم أبو القاسم القشيرى طريق القوم على يد أستاذه الدقاق
سلك بعد وفاته مسلك الرياضة والمجاهدة والتجريد ، ووضع فى «التصوف»
رسالته التي اشتهرت فى مشارق الأرض ومغاربها حتى جاوزت شهرتها

بلاد الإسلام ، وقد سلك فيها أبو القاسم مسلكاً صوفياً بحتاً ، وهو يقول في مقدمتها : أنه كتبها إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، ثم أخذ يذكر دعوت طائفة الصوفية الذين مضوا قبل عصره ذلك الذي امتحن فيه أكابر العلماء من أهل السنة ، وفي مقدمتهم صاحب الرسالة فقال : (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسوله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم ، واختصهم من بين الأمة بطوابع أنوارهم ، فهم الغياث للخلق ، والداثرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلي لهم من حقائق الأحادية ، ووقفهم للقيام بأداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليل والتصريف ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفاهم من الأحوال ، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه مخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم عدل ، وأمره قضاء فصل) .

ثم أخذ أبو القاسم يذكر ما أصاب هذه الطائفة في عصره من انقراض محققينهم وخلو البلاد منهم ، وسوء حال المدعين لطريقتهم ، واستفحال فسادهم حتى ادعى من ادعى منهم أنهم (تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق بجري عليهم أحكامه ، وهم محو ؛ وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كشفوا بأسرار الأحادية واختطفوا عنهم بالسكية ، وزالت أحكام البشرية ، وبقوا بعد فناءهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا) .

وهذا إشارة إلى مذهب نحلة ضالة ادعت التصوف لتستر به ، وهم
أباحيون ، يسقطون التكاليف ، وهم الذين قال فيهم الجنيد رضى الله عنه ؛
ان من يسرق ويزنى خير من هؤلاء وهذه الإشارة من أبى القاسم القشيري
تدل على ما دخل على الصوفية من تلاعب وفساد على يد بعض الطوائف
الضالة من الباطنية .

ثم ذكر أبو القاسم أنه أشفق على القلوب أن تضل القصد في حق
التصوف والمتصوفين فتحسب أن أمر هذه الطائفة بنى قواعده على هذه
الجملة التي حكاهما عن أهل الضلالة ، فعلق (هذه الرسالة ، وذكر فيها بعض
سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم
بقلوبهم ، وما أشاروا إليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيمهم من بدايتهم إلى
نهايتهم لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة) .

والقشيري رحمه الله تعالى قد نقل « التصوف » برسالته نقلة كبرى
لأنه أجرى الحديث في فصولها وموضوعاتها بطريقة صوفية بحتة ، لم يسلك
فيها مسلك المحاسبي في (الرعاية) بل ولا مسلك أبى طالب المكي
في (القوت) من حيث مزج النصوص الشرعية بأقوال الصوفية وآدابهم في
ثنايا الأبواب والفصول ، بل يكتفي في الأعم الأغلب بإيراد بعض النصوص
من الآي أو الأحاديث النبوية في أوائل الأبواب ثم ينفلت مسرعاً إلى
أقوال الصوفية يشرح بها ما يريد من ألفاظهم .

وخصص أبو القاسم رحمه الله تعالى باباً من رسالته لذكر مصطلحات
القوم في أحوالهم ومقاماتهم بألفاظهم التي تدور على ألسنتهم ، وخصص
كل لفظ بفصل مستقل ، لتفسيره وبيان معناه بأقوال أكابرهم .

وقد ترجم في باب من أبواب الرسالة لبعض شيوخهم ، ثم أخذ في

شرح تلك الألفاظ التي يعبرون بها عن معان يحسونها بقلوبهم وعقولهم
ووجدانهم فيذكر أبو القاسم . الوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض ،
والبسط ، والهيبة والآنس ، والتواجد ، والوجد والوجود ، والجمع والفرق
وجمع الجمع والفناء ، والبقاء ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك من ألفاظهم
التي يقصدون بها إلى معان لا يعرفها غيرهم ولا يقول بها سواهم .

وذكر أبو القاسم رحمه الله في باب (حفظ قلوب الشيوخ وترك
الخلاف عليهم) أموراً يتوقف في قبولها أهل الشرع ، ولا يرضاها
العقليون ، وساق في مطلع هذا الباب قصة موسى والخضر عليهما السلام
ليبين ما يلزم من أدب الصحبة بين العلماء بالله ، وليس هذا من قبيل اعتماد
كافة متأخري المتصوفة على هذه القصة في مسألة علم الظاهر والباطن ،
ومسألة الحقيقة والشريعة عندهم .

والقصة - كما جاءت في القرآن الكريم وصحيح الحديث - لا سند
فيها لشيء من ذلك ، لأنها وردت على سبب معين ، كما في حديث البخاري
ومسلم (أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي
الناس أعلم ؟ فقال : أنا : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله
إليه ، أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك) واستدل موسى عليه
السلام ربه على مكان هذا العبد الأعم منه ، ليتعلم منه عما علمه الله ، فدل الله
عليه ، وذهب إليه موسى عليه السلام ، وجرت الحوادث الخاصة التي كان
العبد العليم يعلم حكمها بتعليم الله ووحيه لأنبيائه ، ولم يكن موسى عليه السلام
على علم بأحكامها ، لأن الله لم يعلمه بها بوحيه الذي أنزله عليه ، إذ لم تكن
نوازلها وأحداثها مما يحتاج إلى علم الحكم فيها ، ولم تكن من شريعته
ولو كانت منها لوجب أن يكون على علم بها أداء لحق الرسالة والنبوة .

ولذلك قال العلماء بالقرآن والسنة : أن معنى قوله : هو أعلم منك ،
أى - بأحكام وقائع خاصة مفصلة وحكم نوازل معينة ، لا علماً مطلقاً في جميع
فنون العلم والمسائل ، بدليل قول العبد العليم لموسى : (إنك على علم عليك الله
لا أعلمه أنا ، وأنا على علم علمني به الله لا تعلمه أنت) وهذا صريح في أن
كل واحد منهما كان أعلم من صاحبه بالنسبة إلى ما يعلمه بوحى الله إليه
ولا يعلمه الآخر ، لأن الله تعالى لم يأمره به ؟ كما يشير إلى ذلك قوله :
(وما فعلته عن أمرى) .

وهذا شبيه بما ورد في قصة داود وسليمان عليهما السلام في قوله تعالى
(وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم
شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) قال العلماء بالقرآن
والسنة : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى إليهما ،
فحكم داود بوحى ، وحكم سليمان بوحى : وكلا حكميهما صحيح ، لكن
حكم سليمان كان أرفق بالقوم ، ولذلك أثنى الله عليهما في نسق واحد
فقال : (وكلا آتينا حكماً وعلماً) ولو كان حكم داود خطأ لما أثنى الله
عليه مع سليمان بأعطائه الحكم والعلم معا كما أعطاهما لسليمان .

ومن هذا الباب حديث أبي هريرة عند مسلم أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : (بينما امرأتان معهما أبناهما جاء الذئب فذهب بأبناهما
فقالت هذه لصاحبتهما : إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى : إنما
ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى : فخرجتا على سليمان
ابن داود عليهما السلام ، فأخبرتا ، فقال : اتتوني بالسكين أشقه بينكما ؛
فقال الصغرى ، لا ، يرحمك الله ، هو ابنها ؛ فقضى به للصغرى) فحكم
داود عليه السلام صحيح باعتبار التشريع العام والأخذ بالقرائن والامارات
الظاهرة : وحكم سليمان صحيح باعتبار هذه النازلة التي ظهر له فيها

صدق الصغرى فحكم لها به تغليبا لقراءتها واماراتها على قرائن وامارات الكبرى .

وفي قضية موسى عليه السلام كان العبد العليم بحكم نوازله الخاصة نبياً يوحى إليه بدليل قوله في آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) ولا مانع أن يكون عند أحد الأنبياء - الموجودين في زمان واحد علم بأحكام حوادث تقع في قومه ليس هذا العلم عند غيره من الأنبياء الذين لا يحتاجون في قومهم إلى حكم هذه النوازل بعينها ولا يدل ذلك على تفضيل .

ويستحيل أن يكون غير النبي أعلم من النبي لما يؤدي إليه ذلك من الطعن في مقام النبوة ، وهو أعلى مقامات البشر عند الله تعالى ، فلا تعلق لغير الراسخين من القوم ولا سند لهم في هذه القصة التي يتشبهون بها في حكاية علم الظاهر والباطن ، والحقيقة والشريعة ، وكل ما جرى في القصة هو من العلم الشرعي الذي علمه الله لعبده العليم بوحى منه تعالى ، ولم يعلمه موسى عليه السلام ، لأنه لم يحتج إليه في قومه ، ولو احتج إليه موسى في قومه لوجب أن يكون على علم به من الله تعالى .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين وأكابر الأئمة والراسخين من أهل العلم بالله قول بخلاف ذلك ، وإنما كانت هذه الظاهرة عند المتشبهين بالمتصوفة من العاطلين عن حلى الاخلاص والمراقبة .

وأبو القاسم رحمه الله يروى في هذا الباب عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال : خرجت إلى مرو في حياة شيخى الأستاذ أبي سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لأبي

الغفان في ذلك الوقت مجلس القول - أي السماع - فداخلى من ذلك شيء ،
فكنت أقول في نفسي : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى ،
يوما : يا أبا عبد الرحمن ايش يقول الناس في ؟ فقلت : يقولون : رفع
مجلس القرآن ووضع مجلس القول ، فقال : من قال لأستاذه : لم ؟ لا يفلح أبدا .

هذه الحكاية وأمثالها يجرى ما فيها عند متأخرى المتصوفة بجرى القانون
الحتمى الذى لا تصح مخالفته فيما بين الأستاذ ومريديه ، وليس من حق
التلميذ والمريد عندهم أن يقول لأستاذه : لم فعلت ؟ ولا لم تركت ؟
ولو رأى منه المخالفة الظاهرة لأوامر الشرع ونواهيه ، وبعض مؤلفيهم
يبرزه في صياغة يجعلها من أدب المرید والتلميذ مع أستاذه فيقولون في
أدب الطريق : يجب على المرید أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل
لا إرادة له معه .

وهذا أمر خطير في دين الإسلام ، يفتح أبواب تعطيل الشريعة أمام
من لم ترسخ قدمه في معرفة الله تعالى ، ويؤدى إلى عدم احتشام الأحكام
واحترامها ، وإلى الاستهتار بها تحت ستار الأستاذية والمريدية ، والنبي
صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والخلفاء
الراشدون يقول كل واحد منهم لرعيته : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن
عصيته فلا طاعة لى عليكم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من رأى
منكم فى أعوجاجا فليقومه ، فيقوم إليه رجل من عرض الصفوف ، ويقول
له : والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد الله تعالى عمر على
أن جعل فى رعيته من رزق من شجاعة النفس وقوة الدين ، فيقوم أعوجاج
خليفته بسيفه .

والامة مجمعة على أن شرعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا تبطل

بالاستاذية والتلمذة ، ، فالحكم على المرید الذي يقول لشيخه : لم ؟ استطلاعاً لوجه الأمر في فعل لم يفهم وجهه ، أو إنكاراً لعمل من الأعمال رآه التلميذ مخالفاً لقواعد الشرع وأحكامه ، بأنه لا يفصح ، حكم لا يقرة الشرع ولا يرضاه العقل ، ويتنافى مع التربية الإسلامية التي توجب شجاعة النفس وجرأة القلب في الحق .

والمعروف في أدب الإرشاد الشرعي أن يترك للتلميذ فرصة الفهم لما يرى ويسمع ، ثم يسمع منه بصدر رحب ما يعتلج في نفسه ليرشد إلى الصواب أن أخطأ ، ويقوم إذا اعوج .

ويجب في هذا المقام أن يفرق بين السائل ليفهم ، ويذهب وغر صدره ، وبين السائل تعنتاً أو تنقصاً ، وحق الأول رحابة الصدور والإرشاد والتفهم والصبر على معالجته ، وحق الثاني الأدب ، كما يجب الفرق بين إنكار الأمور التي لها مخارج من الشريعة ، والأمور التي لا يخرج لها في مذاهب العلماء ، فحق الأولى بيان مخارجها وحق الثانية التسليم لمن أنكر عليها .

ويحكى القشيري في هذا الباب : إن شقيقاً البلخي وأبا تراب النخشي قدما على أبي يزيد البسطامي رضي الله عنهم ، فقدمت السفارة وشاب يخدم أبا يزيد ، فقال له : كل معنا يا فتى ، فقال : أنا صائم : فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى ؛ فقال شقيق : كل ولك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين الله تعالى ، فأخذ ذلك الشاب في السرقة بعد سنة فقطعت يده .

وهذه الحكاية إذا صحت روايتها من جنس ما تقدم ، بل أشد ، لأن أهل الله قلوبهم مشغولة بالله تعالى ، مليئة برحمته ولطفه بخلقه ، فهذا الشاب صائم متلبس بعبادة الله تعالى ، دعى إلى ابطالها ومشاركة الأشياخ طعامهم وهو شرف

لهذا المرید ، ولكنہ رأى أن يختار رضا الله تعالى بالاستمرار في عبادته على هذا الشرف ، فما كان يضر هذه الحكاية لو جعلت هذا الشاب من أبطال أهل الله الذين يؤثرون الله على خلقه ويؤثرونه على شهواتهم وما كان يضر هذه الحكاية لو أنها جعلت مكان سخط الأشياخ على شاب يخدم أحدهم دعوات له بالتوفيق يجذبه إلى الأخذ في رفيع الطاعة بديلاً عن الأخذ في السرقة التي قطعت يده فيها ؟ واصبح مقصياً من حظيرة أصحاب القلوب الرحيمة ؟

ونقول : إن هذه الاتجاهات يمكن أن تكون محصورة في دائرة تربية الأشياخ لتلاميذهم ومريديهم على حسب ما يرون من مواضع الأمر والنهي اتباعاً لقواعد الشريعة في تهذيب نفوس المریدين ، ويبقى ذلك في مجالس الأدب دون أن ينشر للعامة الذين لا يحسنون فهم مرامي الأشياخ .

وأبو القاسم رحمه الله تعالى يجعل من الصوفية مذهباً يجب على المریدين اتباعه وعدم الالتفات إلى غيره من المذاهب الشرعية فيقول : (ويقبح بالمرید أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة ، وليس انتساب الصوفي إلى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإن هؤلاء حججهم في مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والناس إما أصحاب العقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الله سبحانه وجود ، فإنهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال) .

وهذا عجيب جداً ، فأين عمل العقل في تأسيس العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من غلس الأباطيل ، وحمايتها من الشبه والأضاليل ؟

وهل يمكن لكل مرید أن یصل باقتضاره علی مذهب المتصوفة وعدم نظره فی مذاهب الفقه والكلام أن یعرف أحكام النوازل فی العبادات والمعاملات ، وأن یحمی عقیدته من تشویش أهل البدع والضلال ؟

وأین عمل الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة الذی كان طریق الصحابة وطریق التابعین من الفقهاء والمحدثین والمفسرین من أئمة الهدی والدين وسادة الصوفية العمليین قبل ظهور المتصوفة والتصوف النظري .

وهل كان أبو علی الدقاق ، وهو الإمام الصوفي الراسخ فی العلم والعمل ، شیخ أبي القاسم ومریبه علی طريقة القوم حينما أرشده إلى الاشتغال بالعلم فی مطلع حياته یقصد بالعلم غیر دراسة مذاهب العلماء فی علوم الشريعة النقلية والعقلية من الفقه والحديث والتفسیر والكلام ، وهي العلوم التي نبغ فیها أبو القاسم القشیری ، وخلف فی موضوعاتها للعالم الإسلامي مصنفات تعد بین العلماء مراجع لها المكان المرموق من الاعتبار والتقدير ؟

وهل كان هذا الإمام المتصوف الضلیع فی طریق القلوب - وهو یشهد تلمیذه أبو القاسم یتردد بین مجلسه ومجالس أئمة وقته فی علوم الشريعة من أضراب الاسفرايينی والطوسی ، وابن فورك غیر ناصح لمريده وتلميذه ؟ .

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك : وإنما هو حکم العصر والبيئة والمجتمع : عصر أبي القاسم القشیری . ومجتمع الإسلام فی ذلك العصر ، هو الذی دفع أبا القاسم إلى أن یكتب هذا فی رسالته نصيحة لمريدي المتصوفة ، وخشية عليهم أن تتخطفهم ذئاب الجدل والمرء من ظوائف الابتداع والتفلسف ، وخشية أن یقضى عليهم فراغ القلوب من تقوى الله وخشيته

بالاشتغال بتفريع مسائل الفقه التي لم تقع نوازها في الحياة : وهو عصر شهد فيه أبو القاسم شداً من المحن والبلايا التي حملته وحملت كثيراً من أئمة وقته على الهجرة إلى المجاورة بمكة المكرمة حتى كشف الله عن المسلمين تلك الغمة وعاد الأئمة إلى ديارهم ومدارسهم .

هؤلاء الأئمة الأربعة الذين تحدثنا عنهم وعن كتبهم في هذا الفصل ، وجعلناهم مرآة لانعكاس أطوار « التصوف » التاريخية في الإسلام ثم وتلاميذهم الذين وضعوا « التصوف » موضعه من التاريخ في الإسلام ، وهم الذين تدرجوا به إلى أطواره من مهده إلى أن شب واستوى مذهبا من مذاهب التفكير في الإسلام .

فالمحاسبى رحمه الله تعالى إمام من أئمة الإسلام ومتكلم من متكلميه الذين نهضوا للرد على أهل الابتداع ، كتب للأئمة آداب الزهاد والنسك ، وما يجب أن يكون عليه العبد في رعاية حقوق الله ، ومستمداً ذلك من الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة والتابعين وسلوكهم في الإخلاص والعمل ليجمع مما كتب نواة لجذب الناس إلى منازل الإخلاص وتصفية القلوب ، معتمداً على علمه بالشريعة أصولها وفروعها وتطبيقها ، ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة في عصره وجود مذهبي خالص يقصد إلى تصويره والتحدث عنه ، ومن هنا ولشهرته في الرد على المبتدعة ذكره أبو طالب المكي من بين المتكلمين ؛ ولم يره من علمائهم علماء الباطن .

وأبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى إمام من أئمة المتصوفة ، علم بالشريعة وآدابها ، كتب للناس آداب المتصوفة وهي في مهدها لم تستكمل شخصيتها الاستقلالية فهي تعيش مع الفقهاء في مذاهبهم ومع المتكلمين في طرائقهم الأولى قبل منطق الفلسفة ومع المحدثين في سلوكهم . ومع

المفسرين في اتجاهاتهم ، ولكنها مع ذلك ليست مغمورة المعالم بينهم بل كان لها سماتها في التطبيق والعمل ، والتنسك والتعبد .

ولذلك كانت كتابة أبي سعيد رضى الله عنه مزيجاً من مصادر الشريعة الصافية ، بحملة بشواهد التطبيق العملي في دائرة صدق المراقبة والإخلاص .

وأبو طالب المسكى رحمه الله تعالى كان عليماً بالتصوف كذهب يستمد خصائصه الأولى من الشريعة المطهرة أصولها وفروعها ، كتب ليبين للناس أن علم التصوف هو خلاصة علم الشريعة ، وأن عمل المتصوفة هو ثمرة العمل بالشريعة ، وأن هذا العمل إذا قام على الإخلاص والمراقبة فتح أبواباً من المعرفة والعلم ، لا تفتح بغير المجاهدة والصبر على مشقة التعب ، ومحاسبة النفس على خطراتها ، وأن هذه الأبواب من العلم والمعرفة لا يقوم عليها إلا من نور الله قلبه ، وأراه بعين بصيرته من المعارف والعلوم ما لا يراه الواقفون مع عقولهم عند ظواهر النصوص ، وهذا ما يسميه علم الباطن ، ولكنها يربطه بعلم الشريعة برباط لا ينقصهم .

أما الإمام أبو القاسم القشيري فقد كان رحمه الله تعالى في رسالته صورة صادقة للتصوف في ذروة مراحلها ، ونهاية أطواره ، كذهب مستقل بين مذاهب الإسلام في طريقة تفكيره في الاعتقاد والتعبد ، وصورة صادقة للمتصوفة كفرقة من فرق المسلمين ، لها طريقها الخاصة في فهم النصوص وتأسيس العقيدة وتطبيق أصولها وفروعها في الأعمال والمجاهدات .

وكل من جاء بعد القشيري إما أخذ منه ، ما تح بدلوه ، نازع من منبعه ؛

وأما مفندسف لما أخذ منه ؛ مستمطر غيبته ؛ مستظل بظله ، وإما هارب من طريقه متصتر تحت بعض أفكاره ومبادئه .

وهؤلاء الهاربون هم الذين فلسفوا التصوف وعقدوا طرائقه ، وأدخلوا عليه غرائب العقائد ، وشاردات النحل والمذاهب ، كالذين همهموا بوحدة الوجود أو الذين قالوا بإسقاط التكليف عن عارفهم الواصلين إلى الإلحاد والإباحية من كل ما يخالف أصول الإسلام وعقائده .

ثم جاء الغزالي فوجد التصوف مذهباً قائم الدعائم واضح المعالم بأصوله وقواعده العلمية ومؤلفاته الضافية ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها خصائصها المميزة ، ولها كيانه المستقل في طريقة تأسيس عقائدها ، وفي طريقة تعبدتها ، بل وجدها في بلده ، وفي بيته ، حصنته بآدابها وسلوكها طفلاً ، ووجهته بصدقها في المعاملة مع الخلق إلى الاشتغال بالعلم ، فعن طريقها على يد شيخه وصي أبيه عليه وعلى أخيه عرف طريقه إلى المدارس العلمية ، وجلس في حلقاتها يسمع من أئمتها الفقه في بلده طوس ، وفي جرجان ثم يرحل إلى أستاذ عصره إمام الحرمين فيلقاه في نظامية نيسابور ، يحف حوله طائفة من أذكيا الشباب ، يأخذون عنه أصول الفقه وأصول الدين ، والمنطق ، والحكمة ويتعلمون منه طرائق الجدل والمناظرة ، فيزاحمهم الغزالي وهو غض الشباب حتى زحهم ، ونافسهم على علوم الإمام حتى غلبهم ، وتشبع حتى تضرع ، ولما توفي أستاذه رحل إلى نظام الملك الوزير العالم الصوفي ، فوجد للصوفية عنده مقامهم الذي لا يسامى فخاطبهم وعاشرهم ، وجلس إلى حلقاتهم ونظر إلى سهرهم الليل وظمأهم بالنهار قياماً لله بحق العبودية ، وسمع كلامهم ، واستطلع بواطنهم واستجلى أنوارهم ، ثم رحل إلى بغداد وعاد إلى نيسابور فوجدهم قياماً في خلواتهم على قدم

الإخلاص ، طرحوا الدنيا بما فيها من أهواء وشهوات وسمعة وجاه ، وسلطان ، وتعززوا بالعلم ، وكان الغزالي قد بلغ من ذلك كله المبلغ الذي ليس فوقه درجة لمستزيد وليس وراءه غاية لمريد ، ذكاء خارق وعلم غزير ، جمع كافة معارف عصره . وهو عصر كان أجمع العصور للمعلم بأنواعه والمعرفة على سائر ضروبها ، إلى جاه عريض وسلطان ينافس سلطان الخلفاء والأمراء في الدواة ، وغلبة في الجدل والمناظرة ورياسة في التدريس ، وشهرة طبقت الشرق والغرب ، وسمعة ملأت آفاق الأرض .

ثم ماذا ؟ إنها عناية الله تعالى هي التي وجهت الغزالي إلى الانضواء تحت لواء طائفة الصوفية بعد هذا الاستعداد العلمي العظيم الذي انفرد به الغزالي في عصره حتى لقب بحجة الإسلام .

وخصيصة الغزالي أنه مفكر ناثر ، لا يؤمن حتى يفهم ولا يفهم حتى يدرس ويبحث وقد درس وعلم وفهم وحصل ، كل ما وعته العقول والأفكار ، ونظر إلى نفسه بعد كل ذلك فظهر له كما يقول (أنه لا مطمح له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنيابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق ، ثم إنني لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلايق ، وقد أهدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيما مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خاصة لوجه الله تعالى ، بل باعتمها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت

فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار إن لم أشتغل
بتلافي الأحوال (۱) .

وصمم العزم وأقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم أن طريقهم إنما
تم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها
المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى
وتخليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليه من العمل .

وهكذا آمن الغزالي بالصوفية والتصوف ، وآمن أن فيها دواءه من
أمراض الدنيا وشهواتها وأنها الطريق الموصل إلى الله ، والسبيل المؤدى
إلى الفوز فى الآخرة برضوانه .

ولكن الغزالي ريب العلم والمعرفة ، صاحب العقل العبقري لا يمكن
أن يسلك طريقاً إلا بعد أن يجوسه بعلمه ، ويختبره بعقله ، فاتجه إلى علوم
الصوفية فوجدها ممهدة فى كتب المحاسبي ، وأبى طالب المكي ، وأبى القاسم
القشيري ، وفى المتفرقات الماثورة عن أكابرهم يتلقاها بالسمع من ثقاتهم ،
فمكف على هذا المحصول العلمى يدرسه ويبحثه حتى اطلع على كنه مقاصد
اصحابه ، وظهر له أنهم خصوصاً لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق
والحال وتبدل الصفات ، وعلم الغزالي يقيناً أن الصوفية أرباب أحوال
لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله من علومهم بطريق العلم
فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسمع والتعلم ، بل بالذوق
والسلوك .

يقول الغزالي : وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها والمسالك

(۱) المنقذ من الضلال .

التي سلكتمها في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

لم يتعب الغزالي رحمه الله تعالى في تحصيل علوم الصوفية لأن علومه التي كانت معه وإيمانه بعلوم الصوفية وأحوالهم يسر عليه التحصيل من أقرب طريق ،

بيد أنه تعب في مجاهدة النفس وصرفها عن ما نوسها مما كان منغمساً فيه من أمور الدنيا التي وصفها ، فاجتمع بأشياخ الصوفية وسلم إليهم قيادته يرشدونه ويربونه ويلاحظونه في ترقياته وأحواله ، فيمثل أمرهم ويسمع قولهم ، ويلبي إشاراتهم ، يقول الزبيدي في شرح الأحياء (فافتدى بصحبة الفارمذي واستفتح منه الطريقة ، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل ، واستدامة الأذكار . والجد والاجتهاد إلى أن جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه) .

وكان الغزالي قد اجتمع بالشيخ يوسف النساج ، وانتهى إلى أنه فتح عليه فتحاً علمياً لا فتحاً لدنياً ، وأنه أدرك أن الكتابة على الصفاء الأول أثبت من الكتابة على المحو بعد الإثبات .

لكن الغزالي يقول في (المنقذ من الضلال) : وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها . والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وأن طريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم

أزكى الأخلاق بل لوجع عقل العقلاء وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

ثم يقول الغزالي ، وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة زيارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلوات استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ، وهذا آخرها بالاضافة إلى ما يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدليل للسالك إليه ، ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم ، ويقتبسون منهم فوائدهم ، (ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول التعبير عنها معبر إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه) .

ثم قال : وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ في كتاب (المقصد الاسنى) .

والغزالي الذى يؤمن بالصوفية هذا الإيمان الذى جر عليه نقد المتفهمة والمحدثين ، ورموه بسببه عن قوس واحدة بسهام من الطعن والتجريح لا يلغى عقله وعلمه مع السادة الصوفية إذا وصل الأمر إلى أساس العقيدة التى قضى عمره ينافح عنها ويكافح فى سبيلها جميع الطوائف والفرق ، ولا يترك علمه ومنطقه العقلى الذى أسس عليه الجدل فى سبيل الدفاع

عن العقيدة حتى حصنها تحصيناً قوياً ووقف يحميها ويزود عنها حتى لقبته الأمة كلها (حجة الإسلام) .

والذي أشار إليه الغزالي من بيان الخطأ على ما يتخيله من انتهى به الأمر إلى القرب من الحلول والاتحاد والوصول هو الذي وقع فيه كثير ممن ذلت أقدامهم ، والغزالي يذكر فيهم بعض الأكابر ويرد عليهم ونحن نسوق هذا الرد حتى يفهم كل مؤمن صادق الإيمان أننا نتبع فيما نكتب طريق الراسخين من أئمة الصوفية .

قال الغزالي في كتابه « المقصد الاسنى » شرح أسماء الله الحسنى بعد أن ذكر ردف كل اسم شرحه تنبيهاً على ما للعباد من حظ في هذا الإسم . (ولقد سمعت الشيخ) أبا علي الفارمذي يحكي عن شيخه أبي القاسم قدس الله روحهما أنه قال : أن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل ، وهذا الذي ذكره إن أراد به شيئاً يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به إلا ذلك ويكون في اللفظ نوع من التوسع والاستعارة فإن معاني الأسماء هي صفات الله تعالى وصفاته لا تصير صفة لغيره ولكن معناه أنه يحصل له ما يناسب تلك الأوصاف كما يقال فلان حصل علم أستاذه ، وعلم الأستاذ لا يحصل للتلميذ بل يحصل له مثل علمه . وإن ظن ظان أن المراد به ليس ما ذكرناه فهو باطل قطعاً فإني أقول : قول القائل إن معاني أسماء الله صارت أوصافاً له لا يخلو إما أنه عنى به غير تلك الصفات أو مثلها فإن عنى به مثلها فلا يخلو إما أنه عنى به مثلها مطلقاً من كل وجه . وإما أنه عنى به مثلها من حيث الاسم والمشاركة في عموم الصفات دون خواص المعاني فهذان قسمان وإن عنى به عينها فلا يخلو إما أن يكون بطريق انتقال الصفات من الرب إلى العبد أولاً بالانتقال ، فإن لم يكن بالانتقال . فلا يخلو . أما أن يكون باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فيكون صفاته صفاته .

وأما أن يكون بطريق الحلول وهذه أقسام ثلاثة وهي الانتقال والاتحاد والحلول فهذه خمسة أقسام الصحيح منها قسم واحد وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها في الاسم وإن لم تكن لا تماثلها بمائة تامة كما ذكرناه في التنبيهات وأما القسم الثاني وهو أن يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال فإن من جملتها أن يكون له علم محيط بجميع المعلومات حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات وأن يكون له قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات حتى يكون بها خالق السموات والأرض وما بينهما وكيف يتصور هذا لغير الله تعالى وكيف يكون العبد خالق السموات والأرض وما بينهما وهو من جملة ما بينهما فكيف يكون خالق نفسه ثم إن ثبتت هذه الصفات لعبدين يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون كل واحد منها خالق من خلقه وكل ذلك ترهات ومحالات .

وأما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو أيضاً محال لأن الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات وهذا لا يختص بالذات القديمة بل لا يتصور أن ينتقل عين علم زيد إلى عمرو بل لا قيام للصفات إلا بخصوص الموصوفات ولأن الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه فيوجب أن تعرى بالذات التي كان عنها انتقال الصفات الربوبية في الربوبية وصفاتها وذلك أيضاً ظاهر الاستحالة .

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك أيضاً أظهر بطلانه لأن قول القائل أن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولاً مطلقاً أن قول القائل إن شيئاً صار شيئاً آخر محال الإطلاق لانا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل أن زيداً صار عمراً واتحد به

فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين
أو زيد موجود وعمر معدوم أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه
الأربع فإن كانا موجودين فلم يصر أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد
منهما موجود وإنما الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فإن
العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون
القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض ببعض وإن كانا
معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وإن كان أحدهما
معدوماً والآخر موجوداً فلا اتحاد إذ لا يتحد موجود بمعدوم فالاتحاد
بين الشيتين مطلقاً محال ، هذا جار في الذرات المتماثلة فضلاً عن المختلفة
فإنه يستحيل أن هذا السواد ذلك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد
ذلك البياض أو ذلك العلم ، والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين
بين السواد والعلم فأصل الاتحاد إذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال
هو هو ولا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية
والشعراء فإنهم لأجل تحسين موقع الكلام من الافهام يسلكون سبيل
الاستعارة كما يقول الشاعر :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وذلك مؤول عند الشاعر فإنه لا يعنى به أنه هو تحقيقاً بل كأنه
هو فإنه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه
الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز وعليه ينبغى أن يحمل قول أبي يزيد حيث
قال (انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هو)
ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها فلا يبقى فيه
متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى فإذا لم يحل في القلب إلا جلال
الله وجماله حتى صار مستغرقاً به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقاً .

و فرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو ، لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كأنه هو كما أن قول الشاعر تارة يقول كأنى من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه منزلة قدم فإن من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلالاً فيه من حلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق وهو غلط غلط النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله بل غلط من ينظر إلى مرآة قد انطبع فيها صورة متلوثة فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرأة وأن ذلك اللون لون المرأة وهيئات . بل المرآة في ذاتها لالون لها وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك هي صورة المرأة حتى أن الصبي إذا رأى إنساناً في المرآة ظن أن الإنسان في المرآة فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه وعن الهيئات وإنما هيئته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون كالمتردد به لا أنه متردد به تحقيقاً ومن لا يعرف الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول لاخمر وتارة يقول لا زجاجة كما عير عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابهها فتشا كل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وقول من قال منهم :

أنا الحق فأما أن يكون معناه معنى قول الشاعر :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وأما أن يكون قد غلط في ذلك كما غلطت النصارى في ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وقول أبي يزيد إن صح عنه (سبحانى ما أعظم شأنى)

إما أن يكون ذلك جارياً على لسانه في معرض الحكاية عن الله تعالى كما لو سمع وهو يقول (لا إله إلا أنا فاعبدني) لكان يحمل على الحكاية وإما أن يكون قد شاهد كمالاً لاحظه من صفة القدس على ما ذكرنا في الترقى بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة من الحظوظ والشهوات فأخبر عن قدس نفسه فقال سبحانه ورأى عظم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق فقال ما أعظم شأنى وهو مع ذلك يعلم أن قدسه وعظم شأنه بالإضافة إلى الخلق فلا نسبة له إلى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ويكون قد جرى هذا اللفظ على لسانه فى سكر وغلبة حال فإن الرجوع إلى الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الألفاظ الموهمة وحال السكر ربما لا يحتمل ذلك فإن جازت هذين التأويلين إلى الاتحاد فذلك محال قطعاً فلا تنظر إلى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال بل ينبغى أن تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(وأما القسم الخامس) وهو الحلول فذلك يتصور بأن يقال أن الرب حل فى العبد أو العبد حل فى الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين وهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى بصفة الحال كما كان ووجه استحالة الحلول لا يفهم إلا بعد فهم معنى الحلول فإن المعانى المفردة إذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن أن يعلم نقيها أو إثباتها فمن لا يدرك معنى الحلول فمن أين يدرك أن الحلول موجود أو محال فنقول المفهوم من الحلول أمران أحدهما النسبة التى بين الجسم وبين مكانه الذى يكون فيه وذلك لا يكون إلا بين جسمين فالبرىء عن معنى الجسمية يستحيل فى حقه ذلك . والثانى النسبة التى بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى فى هذا المعرض فإن كل ما قوامه ينكشف له جليلة الحق

ويصير مستغرقاً به فان نظر معرفته فلا يعرف إلا بنفسه يستحيل أن يحل
في ما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور
الحلول بين عبادين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى وإذا بطل الحلول
والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله تعالى على سبيل الحقيقة
لم يبق لقولهم معنى إلا ما أشرنا إليه في التنبيهات وذلك يمنع من إطلاق
القول بأن معاني أسماء الله تصير أوصافاً للعبد إلا على نوع من التقييد خال
عن الإيهام وإلا فمطلق هذا اللفظ موهوم .

فإن قلت فما معنى قوله إن العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك
لا واصل فما معنى السلوك وما معنى الوصول ؟ .

فاعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف وذلك
اشتغال بعبرة الظاهر والباطن ، والعبد في ذلك مشغول بنفسه عن ربه إلا
أنه مشتغل بتصفيته باطنه ليستعد للوصول وإنما الوصول هو أن ينكشف
له جليلة الحق ويصير مستغرقاً به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله
تعالى وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشغولاً بكماله مشاهدة
وهما لا يلتفت في ذلك إلى نفسه ليعم ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب
الأخلاق وكل ذلك طهارة وهي البداية وإنما النهاية أن ينسلخ من نفسه
بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو ، وذلك هو الوصول .

فإن قلت الحكامات الصوفية تنبئ عن مشاهدات انفتحت لهم في طور
الولاية والعقل يقصر عن درك الولاية وما ذكرتموه تصرف ببضاعة العقل ؟

فاعلم أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته
نعم يجوز أن يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى أنه لا يدركه بمجرد العقل .
مثاله أنه يجوز أن يكشف الولي بأن فلاناً سيموت غداً ولا يدرك ببضاعة
العقل بل يقصر العقل عنه ولا يجوز أن يكشف بأن الله غداً سيخلق مثل

نفسه فإن ذلك يحيله العقل لا أنه يقصر عنه وأبعد من ذلك أن يقول : إن الله سيجعلني مثل نفسه وأبعد منه أن يقول : إن الله سيصيرني نفسه أي أصير أنا هو ، لأن معناه أني حادث والله - يجعلني قديماً ولست خالق السموات والأرضين والله يجعلني خالق السموات والأرضين وهذا معنى قوله نظرت فإذا أنا هو ، إذا لم يؤول وحمل على ظاهره ، ومن صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غريزة العقل ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه يجوز أن يكشف ولي بأن الشريعة باطلة وإنها وإن كانت حقاً فقد يقبلها الله باطلا وأنه جعل جميع أقاويل الأنبياء كذباً وإن من قال يستحيل أن ينقلب الصدق كذباً فإنما يقول ببضاعة العقل فإن انقلاب الصدق كذباً ليس بأبعد من انقلاب الحادث قديماً والعبد رباً ومن لا يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن - يخاطب فليترك وجمله .

قلنا : هذا فصل مهم جداً في بيان صوفية الغزالي ذكرناه بطوله لأنه يبين بياناً شافياً أن الغزالي رحمه الله دخل في الصوفية بعلمه وعقله وأن تضلعه من علم الكلام ومنطق العقل جعله لا يقبل في عقيدته ما لا يقره عقله ولا يرضاه علمه ، مهما كان مقام من صدر عنه ذلك ، فاعتداد أبي حامد بعلمه وعقله حصنه من مزلق الجموح عند الصوفية وجعله يردد في كتبه تلك الكلمة النابغة الحكيمة الجليلة (لا تنظر إلى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال ، بل ينبغي أن تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال) .

للغزالي فصل آخر في كتاب (المقصد الأسنى) تكلم فيه على معرفة الله تعالى عند الصوفية ، ورفع عنهم الاشتباه الذي قد توهمه بعض عبارات منسوبة إلى أكابرهم فقال : (إن خاصية الإلهية أنه الموجود الواجب بذاته التي عنها يوجد كل ما في الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال .

وهذه الخاصية ليست إلا لله تعالى ولا يعرفها إلا الله تعالى ، ولا يتصور أن يعرفها إلا هو أو من كان مثله ، وإذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره .

فإذا الحق ما قاله الجنيد رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لا يعرف الله إلا الله تعالى) ولذلك لم يعط أجل خلقه إلا أسماء حجبها بها فقال : سبح اسم ربك الأعلى ، فوالله ما عرف الله غير الله تعالى في الدنيا والآخرة .

وقيل لذي النون ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهي ؟ فقال (أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة) وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفي والتعطيل ، وذلك لعجزهم عن فهم مثل هذا الكلام .

وأنا أتول : لو قال القائل : لا أعرف إلا الله تعالى ، كان صادقاً ، ولو قال : لا أعرف الله تعالى لكان صادقاً . ومعلوم أن النفي والإثبات لا يصدقان معاً ، بل يتقاسمان الصدق والكذب ، فإن صدق النفي كذب الإثبات وبالعكس ، ولكن إذا اختلف وجه الكلام تصور الصدق في القسمين .

فإن قلت : فقولنا : أنه الواجب الوجود الذي عنه وحده يوجد كل ما في الإمكان وجوده عبارة عن حقيقته ، وقد عرفنا هذا ؟ فأقول : هيئات هيئات ، فإن قولنا : واجب الوجود عبارة عن استغناؤه عن العلة والفاعل ، وهذا يرجع إلى سلب السبب عنه ، وقولنا : يوجد عنه كل موجود يرجع إلى إضافة الأفعال إلى الله تعالى ...

فإن قيل : فما السبيل إلى معرفته ؟ فأقول : لو قال لنا صبي أو جنين ما السبيل إلى معرفة لذة الوقاع وإدراك حقيقته ؟ قلنا : ها هنا سبيلان ، أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه ، والآخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تبشر الوقاع حين تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه ،

وهذا السبيل الثاني هو السبيل المحقق المفضى إلى حقيقة المعرفة ، فأما الأول فلا يفضى إلا إلى توهم وتشبيه للشئ أن يسمى لذة ، ومهما ظهرت الشهوة وذائق طعمها علم قطعا أنه لا يشبه حلاوة السكر ، وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذى توهمه . . .

وكذلك لمعرفة الله سبيلان . أحدهما قاصر ، والآخر مسدود ؛ أما القاصر فهو ذكر الأسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من أنفسنا فإننا عرفنا أنفسنا قادرين عالمين أحياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك فى أوصاف الله ، وعرفنا بالدليل ففهمناه فهما قاصرا كفهم العنين لذة الجماع بما وصف له من لذة السكر . . وفائدة تعريف الله تعالى بهذه الأوصاف أيضا إيهام ، وتشبيه ، ومشاركة فى الإسم بما لا يشبهه . . أما الإيهام فإنه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة ، وأما التشبيه فهو أنه شبهه بحلاوة السكر فى الاسم ، لكن نقطع التشبيه بأن يقال ليس كمثل شئ فهو حى لا كالأحياء ، وقادر لا كالقادرين . . وأما السبيل المسدود فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له صفات الربوبية كلها حتى يصير ربا ، كما ينتظر الصبي أن يبلغ فيدرك لذة الوقاع ، وهذا السبيل مسدود ممتنع ، إذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى ، وهذا هو السبيل إلى المعرفة المحققة لا غير ، وهو مسدود قطعا إلا على الله تعالى وتقدس وحده ، فإذا استحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله تعالى . . .

فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا ، لم يحصل أهل الأرض والسماء من معرفة الله إلا على الأسماء والصفات ؟ . . .

فإن قلت : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟ فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفةهم بالحقيقة هى أنهم يعرفونه وأنهم لا يمكنهم البتة معرفته فإنه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية

المحيطة بكنهه صفات الربوبية إلا الله تعالى ، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافا
برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه إلى بلوغ المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من
معرفة ، وهو الذى أشار إليه الصديق الأكبر حيث قال : (العجز عن
درك الإدراك إدراك) بل هو الذى عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه
وسلامه حيث قال : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولم
يرد أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه : أنى
لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيتك ، وإنما أنت المحيط بها وحدك . .

ويتفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات
الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك
والملكوت .

فإذا قد عرفت كيف يتفاوت الخلق فى بحار معرفة الله ، وأن ذلك
لأنهاية له وعرفت أن من قال : لا يعرف الله إلا الله فقد صدق ، ومن
قال : لا أعرف إلا الله فقد صدق ، فإنه ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله .

ثم ختم الإمام الغزالي هذا الفصل بقوله : (ولقبض عنان البيان فقد
خضنا لجة بحر لا ساحل له ، وأمثال هذه الأسرار لا ينبغي أن تبدل
بأيديها الكتب ، وإذ جاء عرضها هنا غير مقصود فلننكف عنه) .

والغزالي رحمه الله تعالى دخل الصوفية على قدم المجاهدة والرياضة
والقيام لله تعالى بحق العبودية من استدامة الاذكار والجد فى وظائف
العبادات - والامعان فى النوافل وتكليف المشاق فى محاسبة النفس ومراقبتها
حتى كان هذا النهج معروفا به منسوبا إليه بين طوائف المتصوفين . .

ومن هنا عقد بعض متأخري الصوفية موازنة بين طريق الغزالي ،
وطريق غيره من أرباب القلوب ، قال ابن المبارك السجلماسى فى كتاب

الإبريز : سئل الشيخ العارف عبد العزيز الدباغ : ما الفرق بين طريقة
الولي العارف الشاذلي وأتباعه ، وطريقة الغزالي وأتباعه حتى أن الأولى
مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا كلفة والأخرى
مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرهما فهل هما
سبب متوافقان على الرياضة وإنما يأمر الشاذلي بالشكر بعد القرب للوصول
أو عنده ، أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وحين البداية
وهل الطريقتان يمكن سلوكهما لرجل واحد أو لا يمكن أن ينتفع بإحدهما
إلا بالإعراض عن الأخرى .

فأجاب رضى الله عنه بأن طريقة الشكر هي الأصلية وهي التي كانت
عليها قلوب الأنبياء والأصفياء من الصحابة وغيرهم وهي عبادة الله على
إخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ مع الاعتراف بالعجز
والتقصير وعدم توفية الربوبية حقها ويكون ذلك رقى للقلب على مر
الساعات والأزمان فلما علم تبارك وتعالى الصدق في ذلك أثابهم بما يقتضيه
كرمه من الفتح في معرفته ونيل أسرار الإيمان به عز وجل .

فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو
مطلوبهم ومرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والسهر ودوام الخلوة
حتى حصلوا على ما حصلوا ، فلهجرة في طريق الشكر كانت من أول الأمر
إلى الله وإلى رسوله لا إلى الفتح ونيل الكشوفات ، والهجرة في طريق
الرياضة كانت للفتح وهو في الأولى هجومى لم يحصل من العبد تشوق إليه
فبينما العبد في مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب إذ جاءه الفتح
المبين والطريقتان على صواب لكن طريقة الشكر أصوب وأخلص
والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنهما في الأولى رياضة القلوب بتعلقها

بالحق سبحانه وإلزامها العكوف على بابه واللجوء إلى الله في الحركات
والسكنات والتباعد عن الغفلة المتخللة بين أوقات الحضور .

وبالجملة فالرياضة فيما تعلّق القلب بالله عز وجل على الدوام وإن
كان الظاهر غير متلبس بكبير عبادة وإذا كان صاحبها يصوم ويفطر
ويقوم وينام ويقارب النساء ويأني بسائر وظائف الشرع التي تقتضيها
رياضة الأبدان .

ثم قال الشيخ الدباغ : والغزالي أمام حق وولي صدق ولا تنافي بين
الطريقتين فيمكن للعبد أن يعلّق قلبه بالله عز وجل في سائر حرركاته وسكناته
ويقيم ظاهره في المجاهدة والرياضة .

ويظهر لنا أنهما منهجان عند المتصوفة ، عبر عنهما الإمام العليم أبو سعيد
الخراز في بيان المعرفة فقال : والطريق الموصل إليها أنها (تأتي من عين
الجود ، ومن بذل الجهود) فعين الجود فتح التفضل للشاكرين ، وبذل
الجهود فتح الجزاء للمتعبدين المجاهدين .

اللهم إني أسألك مغفرة تطاولي إلى الحديث عن مقامات أوليائك ،
فإني أحبهم وقصدت تحبيهم إلى من يريد سدك طريقهم في الوصول
إلى رضاك .

والحمد لله على نعمة التوفيق .

(تم بحمد الله)

0
330
660
985
2625
4595
FEET

27°45'

GLE



وزارة الدفاع
ساحيا محمد الازق

١٩ كنيسة الارمن ش الجيش

تليفون : ٩٣٤٠٩٨

٣٠



